القسم الثاني

صلاح الدين الأيوبي

(١١٧١- ١١٩٣م

obeikandl.com

الفصل الثالث

- توحيد الجبهة الإسلامية و حرب الاستنزاف

الأيوبية الصليبية (١١٧٤- ١١٨٦م)

obeikandl.com

الفصل الثالث

- توحيد الجبهة الإسلامية و حرب الاستنزاف

الأيوبية الصليبية (١١٧٤- ١١٨٦م)

نتصدى لهذا الفصل بالدراسة لحركة الوحدة التي قادها صلاح الدين الأيوبي علي مدى الأعوام من ١١٧٤- ١١٨٦م ثم حرب الاستنزاف التي شنها علي الصليبيين إلي أن تم تحقيق الإنجاز التاريخي الكبير عام ١١٨٧م .

واقع الأمر، تواجه الباحث في أمر تحركات ذلك القائد العسكرية خلال المرحلة المذكورة بعض المشكلات إذ أن نصوص المصادر التاريخية علي اختلاف تصورات أصحابها تقدمه لنا كرجل طموح يريد بالفعل أن يخضع منطقة واسعة من مصر إلي بلاد الشام ثم شمالي العراق ، علي الرغم من تعدد أعدائه السياسيين و المذهبيين ، و توزعهم بين مسلمين ، و صليبيين مع ملاحظة أنه فيما بعد سيأتي دعم للأخيرين من الغرب الأوروبي علي نحو عكس مدي تكالب الأعداء في مساحة شاسعة موزعة بين قارات آسيا ، وأفريقيا ، وأوروبا .

ومن اليسير علي المؤرخ خلال المرحلة المذكورة أن يفسر كافة تحركاته علي أنها نابعة من الطموح الشخصي ، و الرغبة في تكوين دولة له ، و لأسرته خلفاً للأسرة الزنكية ، و بالتالي فهو- عند فريق من المؤرخين - بني مجده علي أطلال حكم الزنكيين ، غير أن الرد علي ذلك أن المرحلة من ١١٧٤- ١١٨٦م لا تفهم بذاتها بل بالمرحلة التالية لها خاصة الأعوام من ١١٨٧ إلي ١١٩٢م .

و هكذا ، فمن الخطأ البين التفسير الاعتسافي للتاريخ ، والتعامل مع مرحلة زمنية معينة و إخراجها من سياقها التاريخي السابق عليها ،و اللاحق لها .

واقع الأمر ، أن عام ١١٧٤م ، جاء ليحدث تغييراً سياسياً لدي المسلمين ، و الصليبيين علي حد سواء ، فإذا كان قد شهد غياب نور الدين محمود ، لدى المسلمين ، فإنه شهد أيضاً رحيل الملك عموري لدى الصليبيين مع ملاحظة أن الأخيرين دخلوا في مرحلة اضطراب و ضعف سياسي متزايد ، أما المسلمين فالأمر المؤكد تاريخياً أن الفراغ السياسي الذي نجم عن رحيل نور الدين محمود أمكن إنهاؤه بفضل التحرك السريع من جانب مصر التي كانت بالأمس فاطمية ، وصارت

الآن بعد الأعوام القلقة من ١١٧١ إلي ١١٧٤م ، صارت أيوبية ؛ أي بطابع سياسي جديد واعٍ تماماً لمقتضيات المرحلة التالية .و إذا كانت مصر في العصر الفاطمي الثاني قد قبلت - بضعف وهوان ملفت للنظر – تساقط أملاكها في بلاد الشام الواحدة تلو الأخرى فإنها الآن لن تقبل إلا بالتدخل هناك من خلال عدة دوافع سياسية و اقتصادية لا تنكر ، فقد أدرك صلاح الدين من خلال خبرته المتراكمة عبر طريق دمشق - القاهرة أن المدينتين المذكورين في حالة توأمة جغرافية و تاريخية ، و أن بقاء كل واحدة منهما منفصلة عن الأخرى ، والمؤكد أنه كقائد طموح لم يكن من الممكن ، أن يقبل بالبقاء في مصر منعزلاً يشهد تطورات سياسية متلاحقة في دمشق لا تتفق مع مصلحته السياسية العليا خاصة أن دمشق غدت المجال الحيوي المنطقي لتوسعاته التالية .

و الواقع أنه في أعقاب رحيل مهندس حركة الجهاد الإسلامي في النصف الثاني من القرن ١٢م و أعني به نور الدين محمود تولي من بعده ابنه الصالح إسماعيل و كان صبياً صغيراً ، وعادت دمشق إلي سيرتها القديمة في التفكك ،و التصارع [١] ، و كأنها أرادت عودة نظام الأتابكيات التي نتج عن تفكك الدولة السلجوقية ، وفي ذلك الحين أرسل بعض أهل دمشق إلي صلاح الدين الأيوبي يطلبون منه التدخل إنقاذاً لبلدهم من عواقب الصراع السياسي [٢] .

و الأمر المؤكد أنه لم يكن أمامه إلا التدخل بقوة في الشأن الدمشقي حماية لأمنه السياسي في القاهرة ، وكذلك حماية لعاصمة بلاد الشام التاريخية من خطر الكيان الصليبي الذي كان يرصد من مرتفعات الجولان عبر قلعة الصبيبة [٣] . تمر كافة التطورات بجلاء تام ، وقد كان من مصلحة الصليبيين أن يوجد كيان إسلامي ضعيف

١- ابن شداد ، النوادر السلطانية ،ص ٥٠.

٢- عبد القادر الريحاوي ، دمشق تراثها و معالمها التاريخية ،ط. دمشق ١٩٩٦م ، ص ٣٣.

٣- قلعة الصبيبة ، وقعت بالقرب من بلدة بانياس في الشعاب الجنوبية من جبال لبنان الشرقية و التي سميت قديماً جبل هرمون Hermon أو جبل الشيخ حالياً ، أما اسمها فقد ورد علي انه الصبيبة أو بانياس أو نمرود و قد حدث صراع مرير بين المسلمين و الصليبيين بشأنها نظراً لموقعها الاستراتيجي المذكور ، عنها أنظر :مولر ، القلاع أيام الحروب الصليبية ، ت. محمد وليد الجلاد ،دمشق ١٩٨٤م ، ص ٥٢- ٥٣، محمد مؤنس ، تاريخ القلاع الصليبية في بلاد الشام ، ص ٦٢-ص٦٣.

هناك حتى يسمح لهم بحرية الحركة العسكرية ، و السياسية ، وبالتالي يتمكنوا من ملء الفراغ السياسي الناجم عن رحيل آخر ملوكهم الكبار ، وأعني به عموري الأول .

لقد تمكن الفارس الأيوبي بالفعل عام ١١٧٤م من فرض سيطرته السياسية علي دمشق ، وكان يحمل شعاراً سياسياً براقاً ، وهو أنه ما قدم إلا دفاعاً عن ابن سيده الصالح إسماعيل ضد الطامعين في ملكه ، و دل ذلك علي قدرته علي التعايش مع الواقع السياسي حينذاك ، ورغبته في إظهار تدخله في دمشق بمظهر التدخل الذي يملك المبرر الشرعي و المنطقي في أذهان المعاصرين مع ملاحظة أن ذلك الشعار ما أتخذه إلا لدعم قوته خلال تلك المرحلة ، لكنه فيما بعد سيسقطه بعد أن يتمكن من تدعيم نفوذه علي نحو أكبر .

و في تصوري أن هناك عامين فارقين في تاريخ دمشق ؛ الأول عام ١١٥٤م ، عندما خضعت لنور الدين محمود و توحدت لأول مرة مع شقيقتها الشمالية حلب و الثاني عام ١١٧٤م عندما اتحدت دمشق مع القاهرة من خلال سيد واحد في صورة صلاح الدين ، ولا نغفل أن حركة الجهاد الإسلامي التي انطلقت من الموصل مروراً بحلب ثم دمشق و القاهرة ، الآن تسير في اتجاهها المعاكس فتبدأ من القاهرة كي تصل إلي دمشق ثم حلب .

و من المهم هنا الإقرار ؛ بأن صلاح الدين الأيوبي لم يكن مبتكراً في أمر الوحدة ، بل إنه مثل جزءً من تطورها التاريخي ، فالملاحظ أن عماد الدين زنكي بإخضاعه حلب للموصل [1] بدأ الطريق وواصله نور الدين و الآن علي الفارس الكردي إكماله ، وفي حالة الافتراض جدلاً بعدم إكماله لذلك الدور التاريخي الذي بدأ من عدة عقود ماضية ؛ لما احتل مكانة البارز في التاريخ خلال مرحلة القرون الوسطي .

لقد نتج عن إخضاعه لدمشق عدة نتائج بعيدة المدى فقد عادت الوحدة السياسية بين عاصمة مصر، القاهرة و عاصمة بلاد الشام دمشق ، بعد قرنين من التصارع

١- عن طريق الموصل – حلب أنظر : هذه الدراسة العلمية الجادة . كمال بن مارس ، العلاقة بين الموصل و حلب و أثرها علي الحروب الصليبية ، رسالة ماجستير كلية الآداب – جامعة عين شمس عام ١٩٩١م م ن وقد نشرت تحت عنوان : العلاقات الإقليمية و الحروب الصليبية ١٠٧١- ١١٨٧م ،ط. القاهرة ٢٠٠٤م .

و التناصر المذهبي السني – الشيعي ، كما أن حركة التجارة المزدهرة عبر ذلك الطريق التاريخي الذي عرف بطريق حورس القديم بشمالي سيناء – أو ما عرف بالدرب السلطاني – صارت كافة أمواله الطائلة في قبضة الأيوبيين علي نحو دعم قدراتهم علي التحرك عسكرياً ، و سياسياً ضد القوى الإسلامية المناوئة ، وكذلك الصليبيين .

ومن ناحية أخرى ، لم يعد صلاح الدين الأيوبي يمكنه مواجهة المملكة الصليبية عبر اجتياز شبه جزيرة سيناء القاحلة بل أن المسافة بينه ، و بينهم من خلال سيطرته علي دمشق و هكذا ، فإن مناطق الجليل الأعلى ، وبيروت ،و صور ، وصيدا صارت في الاهتمامات الأوروبية ، ولكن تنتظر الظرف التاريخي الملائم ، ولا نغفل أن معركة حطين عام ١١٨٧م – هي التي سنخصص لها فصلاً مستقلاً انطلقت القوات الإسلامية قبلها من مرتفعات الجولان ذاتها – و هكذا يتأكد لنا أن إخضاع دمشق أثر علي قدرة السلطان الأيوبي علي المناورة العسكرية ، و السياسية علي نحو أكبر من وجوده في القاهرة فقط .كذلك لا نغفل أن السيطرة علي تلك المدينة جعله وجهاً لوجه مع الزنكيين الذين لم يكن من الممكن أن يقبلوا الاستسلام في يسر، و سهولة أمام الفارس الكردي المنطلق من القاهرة صوبهم .

غني عن القول ، شنت حملة إعلامية ضده من خصومه المعاصرين له ، وكذلك بعض المؤرخين المحدثين الذين تأثروا برؤية ابن الأثير أو بعض المستشرقين ، وهكذا ظهر صلاح الدين لديهم علي أنه التابع العاق لسيده الذي ورث أملاكه ، و تمرد عليه . وللرد علي ذلك نلاحظ الآتي : أولا: ليست القضية قضية ولاء لأفراد بل هي الولاء لقضية الجهاد الإسلامي فالرجل أراد تكوين دولة جديدة علي أنقاض دولة سابقة انتهي دورها كي ينطلق إلي مجاهدة الغزاة الصليبيين ، ثم أن صلاح الدين كان وفياً لنور الدين محمود ، وما أشيع في المصادر عن خصومه المطرفين علي الأرجح غذاها المؤرخ العراقي ابن الأثير ، و رواياته التي أوردها تعطي حجماً أكبر ، و غالباً مفتعلاً للنزاع بين الرجلين ؛ و قد يكون هناك تنافس سياسي ، لكن من يدرس تاريخ السلطان الأيوبي يدرك كيف أنه كان وفياً لنور الدين محمود غير أن وفاءه الأكبر كان للجهاد الإسلامي ،و هذا هو ما يوصف بأنه بيت القصيد .

ثانياً : التدخل في بلاد الشام أملته الظروف و الملابسات التي نتجت عن رحيل نور الدين محمود – كما أسلفت الذكر - و لم يكن صلاح الدين نسخة مكررة باهتة من

العاضد الفاطمي الذي قنع بالبقاء في الحدود المصرية مع وجود العدو الصليبي قائماً في بلاد الشام ،و أنتهي به الأمر إلي الخروج من التاريخ !!.

ثالثا: من الملاحظ أن العداء ضده تزايد مع زواجه ١١٧٦م [١] من عصمت خاتون أرملة نور الدين محمود ؛ و هي ابنة معين الدين انر اتابك دمشق خلال الحملة الصليبية الثانية ١١٤٧- ١١٤٩م ، وقد تزوجها ليس إذلالاً لها أو كرهاً لزوجها أو جحوداً كما توهم البعض ، بل حفاظاً عليها ، و إبقاءً لها كسلطانة موقرة سكنت قلعة دمشق أعواماً طويلة ، و لا نغفل أن عمرها كان حينذاك خمسين عاماً [٢] ، ويلاحظ أن الأتابك عماد الدين زنكي من قبل أقدم علي تجربة مهمة للزواج السياسي عندما اقترن بزمرد خاتون ملكة دمشق [٣] ،و كانت قد بلغت الستين من عمرها ، ولا نغفل هنا ، أن من بين الأسباب إقدام الفارس الكردي علي الزواج من عصمت خاتون ؛ رغبته في أن يكون الوريث الشرعي لأملاك نور الدين محمود ، وحتى يتدعم نفوذه أمام القوي السياسية المتربصة به في بلاد الشام من المسلمين و ما أكثرها .

نخلص من ذلك أن ما أقدم عليه صلاح الدين الأيوبي عام ١١٧٦م من زواجه من أرملة سيده دل علي نبل الأخلاق ، وفي نفس الحين القدرة علي حسن تقدير الأمور لصالحه و لصالحها هي أيضاً ، و لا يمكن اتخاذه علي أنه دليل علي العقوق أو الجحود كما توهم البعض ممن يتخذون موقفاً مسبقاً ثم يكتبون التاريخ من خلال القولية و اعتساف الأحكام .

ويلاحظ أن صلاح الدين الأيوبي واجه خطراً محدقاً من عناصر الإسماعيلية النزارية أو الحشاشين Assassins ؛ وهم الذين من قبل اغتالوا قائد الجهاد الإسلامي شرف الدين مودود ،

١- عن زواجه من عصمت خاتون أنظر : عبد المنعم ماجد ، الدولة الأيوبية في تاريخ مصر الإسلامية ،ط. القاهرة ١٩٧٧م ن ص ٧٩ . وعنها أنظر الفصل السادس .

٢- شاكر مصطفي ، صلاح الدين ،ص ١٨٤ ، وعنها أنظر : خلف محمد الحسيني ، لقاء بطلين صلاح الدين الأيوبي و جمال عبد الناصر ،ط. أسيوط ١٩٥٨م ، ص ١٠١.

٣- نفسه ، نفس الصفحة ، من الممكن الرجوع إلي هاتين الدراستين ؛ فتحي أبو سيف ، المصاهرات السياسية في العصرين الغزنوي و السلجوقي ،ط. القاهرة ١٩٨٦م ، وفاء محمد علي ، الزواج السياسي في عهد الدولة العباسية ،ط. القاهرة ١٩٨٨م .

و الآن يوجهون خناجرهم إلي ذلك القائد المسلم البارز، و هكذا ؛ تعرض إلي لعملتي اغتيال [١] و ذلك عام ١٩٧٥م ،و ذلك خلال حصاره لحلب . كما تعرض عام ١١٧٦م لمحاولة أخرى في إعزاز و هي من مناطق الإسماعيلية و أن تحصنوا في ما عرف بقلاع الدعوة مثل مصياف [٢] التي كانت من قلاع الدعوة الإسماعيلية مثل الخوابي [٣] ، والقدمرس [٤] ،

١- عن محاولتي اغتياله أنظر : ابن الأثير ، الكامل ،جـ١ ، ص ١٣٠ ، سبط ابن الجوزي ،مرآة الزمان ، ص ٣٢٨ ، ابن واصل مفرج الكروب ،جـ٢ ، ص ٢٤ ، المقريزي ، السلوك ،جـ١ / ق١ ، ص ٦٧ ، حامد غنيم ، الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية ،ط. القاهرة ١٩٧٢م ،جـ٢ ، ص ٧٤ ، يوسف الدبس ، تاريخ سوريا ،ط. بيروت ١٩٠٠م ،جـ٦ ، ص ٨٦ – ص ٨٧ ، برنارد لويس ، الدعوة الإسماعيلية الجديدة ، ت. سهيل زكار ،ط. بيروت ١٩٧١م ، ص ١٣٠ ،جمال الدين الشيال ، تاريخ مصر الإسلامية ،ط. القاهرة ١٩٦٧م ،جـ٢ ، ص ٤٥ ، محمد مؤنس عوض ، التنظيمات الدينية الإسلامية و المسيحية في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب – جامعة عين شمس عام ١٩٨٤م ،ص ٢٥٠م

٢- مصياف ، أو مصباث ، أو مصباب و هي من أهم قلاع الدعوة الإسماعيلية في بلاد الشام ووقعت ضمن حدود إمارة طرابلس الصليبية و حدد موقعها بانها كانت إلي الجنوب من الرصافة و إلي الشرق من قلعة القدموس عنها انظر : أسامة بن منقذ ،كتاب الاعتبار ، تحقيق فيليب حتى ،ط. بريستون ١٩٣٠م ، ص ١٤٨ حاشية (٢) ، جوزيف نسيم يوسف ، العدوان الصليبي علي بلاد الشام هزيمة لويس التاسع في الأراضي المقدسة ،ط. بيروت ١٩٨١م ،ص ٢١٩، حاشية (١) .

٣- وقعت قلعة الخوابي في شمال غرب صافيتا و جنوب شرق المرقب ، عنها أنظر : الإدريسي ، نزهة المشتاق ،جـ٤ ، ص ٣٧٥ ، ابن سعيد المغربي ،بسط الأرض في الطول و العرض ، تحقيق خوان خنيس ،معهد مولاي الحسن ،ط. تطوان ١٩٥٨م ، ص ٨٦ ، محمود سعيد عمران ، الحملة الصليبية الخامسة ،ط. الإسكندرية ١٩٧٨م ، ص ٦٠٤.

٤- القدموس ، وقعت إلي الشرق من المرقب و يقال الإسماعيلية النزارية تمكنوا من الاستيلاء عليها خلال المرحلة ما بين ١١١٢، ١١١٣م ، عنها أنظر : القلقشندي ، صبح الأعشى ،جـ٤ ، ص ١٤٧، زكي نقاش ، الحشاشون و اثرهم في السياسة و الاجتماع رسالة دكتوراه غير منشورة - كلية الآداب - جامعة القاهرة عام ١٩٥٠م ، ص ١٣٣ ، عبد الكريم حتاملة ، " صلاح الدين الأيوبي و موقفه من القوي المناوئة في بلاد الشام " ، الدارة السنة (١٢) العدد (٢) سبتمبر ١٩٨٦م ، ص ١٦٢.

المينقـة [١] ، والعليقـة [٢] ، وغيرهـا ، وهنـا نلاحـظ أن نجاتـه مـن عمليـات الاغتيـال و المؤامرات المتعددة لا تجد تعليلاً منطقياً لها إلا من خلال حفظ الله جل شأنه لذلك الفـارس ، وادخـاره ليـوم محـدد لجهـاد الصـليبيين ،ومـن الملفت للانتبـاه ؛ أن عناصـر الإسـماعيلية النزاريـة أراد ت أن تفعـل بـه مـا فعلتـه مـن قبـل مـع قـادة حركـة الجهـاد الإسلامي ، كما لا نغفل أيضاً أمر تهديدها لنـور الـدين محمـود ، لكـن المحـاولتين ضـد صلاح الدين فشلتا و دل ذلك علي عدم قدرتهم علي تحقيق هدفهم المـاكر بالقضـاء عليـه خلال تلك المرحلة القلقة من مراحل تاريخه العـامر بالأحداث ، وقد اتجـه إلـي مهاجمـة مراكزهم عام ١١٧٦م [٣] .

لقد أثبتت الإسماعيلية النزارية حينذاك أنها تعاملت مع قادة حركـة الجهـاد الإسـلامي ، وبالتالي وقفوا في خندق واحد مع الصليبيين .

وهكذا يمكن القول أن هنـاك ثلاث محاولات اغتيال كبيرة تعرض لها ذلك السلطان في صورة المؤامرة الدولية الكبرى عام ١١٧٤م ، ثم محاولـة عند حلب عـام ١١٧٥م [٤] ،

١ـ وقعت قلعة المنبقة شمال قلعة الكهف و إلي الغرب من قلعة القدموس عنها أنظر : ابن بطوطة ، الرحلـة ،ط. بيروت ١٩٦٤م ، ص ٧٦ ، عارف تامر ، سنان وصلاح الدين ،ط. بيروت ١٩٥٦م ،ص ٧١.

٢ـ وقعت قلعة العليقة جنوب شرق جبلة ، عنها أنظر ؛ القلقشندي ، المصدر السابق ،جـ٤ ،ص ١٤٧ ، إلياس ديب العقود الدريـة في تاريخ المملكة السورية ،ط. بيروت ١٨٧٤م ن ص ٩٢ ، السيد عبد العزيز سالم ، طرابلس الشام في التـاريخ الإسلامي ،ط. الإسكندرية ١٩٦٧م ، ص ٣١٦.

٣ـابن واصل ، مفرج الكروب ،جـ٣ ، ص ٤٧ـ ٤٨ ، ابن كثير ، البداية و النهاية ،جـ٢ ،ص ٢٦٥.

٤ـ عن تلك المحاولـة أنظر : ابن واصل ، مفرج الكروب ،جـ٢ ، ص ٢٤ ، سـعيد عاشور ، صلاح الدين الأيوبي ، ص ١١٤ نظير حسان سعداوي ، التاريخ الحربي المصري ، ص ٩٣ ، جمال الدين الرمادي ، صلاح الدين الأيوبي ،ط. القاهرة ١٩٥٨م ، ص ٥١ . سوسن محمد نصر ، القاضي الفاضل و صلاح الدين و الوحدة الإسلامية ،ط. القاهرة ١٩٩٠م ، ص ٧٤ ، محمد المقدم ، الاغتيالات في بلاد الشام و الجزيرة زمن الحروب الصليبية ، رسالة ماجستير– كلية الآداب – جامعة المنصورة عام ٢٠٠٥م ، ص ٢٣٨ـ ٢٣٩ دراسة غير مسبوقة في موضوعها و الجهد المبذول فيها من جانب الطالب اليمني النابه .

وأخرى عند إعزاز عام ١١٧٦م [١] ، وكل ذلك يكشف لنا أن تاريخه لم يكن صنعه سهلاً ميسوراً بل أن العقبات ، و المخاطر كان تلاحقه في مرات عديدة ، ومن الملفت للانتباه أن العقبات صادفته من القوى الإسلامية بصورة نجدها فاقت أحياناً القوى الصليبية خاصة خلال مرحلة الوحدة الممتدة بين عامي ١١٧٤ ، ١١٨٢م ، وفي تقديري أنه في حالة إنجازه لأمر تلك الوحدة في أعوام قليلة لكان من الممكن مواجهة الكيان الصليبي في عام سابق علي عام ١١٨٧م ، ومع ذلك يبقي الأمر كنوع من " الرياضة الذهنية " خاصة مع إدراكنا أن أحداث التاريخ لا تتقدم و لا تتأخر بل تحدث من خلال توقيت محدد كنتاج لظروف متعددة و دوافع مختلفة تؤدي إليها .

تجدر الإشارة ، إلي أن عناصر الزنكيين في كل من حلب ، و الموصل تحالفا معاً لمهاجمة صلاح الدين الأيوبي في منطقة حماه ، وقد اتجه الأخير إلي أن يعرض عليهم إعطاءهم حمص و حماه شريطة أن تظل دمشق في يده ، ويصير نائباً عن الملك الصالح إسماعيل ، إلا أنهم رفضوا ، ويلاحظ هنا أن ذلك الفارس الأيوبي في كافة تحركاته كان يفضل دوماً الحل السلمي تجنباً لسفك الدماء ، وعندما لا تكون من ورائه جدوي عندئذ لا يجد مفراً من الحرب ، وبالتالي فالأخيرة لم تكن بمثابة الاختيار الأول له.

و هكذا ، ألتقت قوات الطرفين في ١٢إبريل ١١٧٥م في منطقة قرون حماه [٢] و قد أسفرت عن انتصار كبير للقوات الأيوبية التي تتبعت الجيش الزنكي المنسحب حتى حلب .

١- عن تلك المحاولة أنظر : ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٥٢ ، ابن واصل ، مفرج الكروب،جـ٢ ،ص ٤٥ ، المقريزي ، السلوك ،جـ١ / ق١ ،ص ٦٧ ، نظير حسان سعداوي ، التاريخ الحربي المصري ، ص ٧٥ ،جمال الدين الرمادي ،صلاح الدين الأيوبي ، ص ٥١- ص ٥٢ ، الدبس ، تاريخ سوريا ،جـ٦، ص ٨٦- ص ٨٧ ومن المفيد الاطلاع علي هذه المقالة المهمة : عبد الكريم حتامله ، " صلاح الدين و موقفه من القوى المناوئة في بلاد الشام " الدارة ، العدد (٢) السنة (١٢) سبتمبر ١٩٨٦م ، ص ١٧٣-ص ١٨٩ ، وكذلك هذه الدراسة المهمة: راجية عبد الوهاب ، الأيوبيون و الإسماعيلية في بلاد الشام و العلاقة بينهم ،ط. القاهرة ١٩٨٢م .

٢- عن معركة قرون حماه ، انظر: ابن شداد ، النوادر السلطانية، ص ٥١ ، ابن واصل ، المصدر السابق ،جـ٢ ، ص ٣١- ص ٣٣ ، عبلة المهتدي الزبدة، صلاح الدين و تحرير القدس ،ط. عمان١٩٩٤م ، ص ١٠٢، سعيد عاشور ،مصر و الشام في عصر الأيوبيين و المماليك ،ط. بيروت ، ب- ت ، ص ٤٠.

ولا ريب في أن تلك المعركة كانت ذات نتائج متعددة علي مستقبل صلاح الدين الأيوبي السياسي ، و يلاحظ أن تاريخه في معركتين بارزتين هما قرون حماه ١١٧٥م ، وقرون حطين ١١٨٧م و الأولي ضد الزنكيين و الثانية ضد الصليبيين ، وقد أكتسب ثقة في قوته ،و قدرته علي أن يحدث تغييراً فعلياً في الواقع السياسي في بلاد الشام و يمكن إجمال تلك النتائج علي النحو التالي :

أولاً : تخلصه من التبعية للصالح إسماعيل [١] ،حيث أزال اسمه من علي السكة ، ويلاحظ هنا أن ذلك الموقف لا يدل علي غدر أو عدم وفاء لنور الدين محمود ، و ابنه ، فلم يكن من الممكن بعد ذلك إلا من الانتصار البارز أو أن يظل تابعاً له ، وقد تأكد الآن - أكثر من أي وقت مضي – أن شمس الزنكيين آخذة في الذبول ، و المغيب ، و شمس الأيوبيين بدأت تشرق بأشعة جديدة ستغير من تاريخ المنطقة .

ثانياً : أكدت تلك المعركة سيطرته علي المناطق التي كانت خاضعة لسيطرته السياسية في صورة دمشق ،وحمص ، وحماه ، وبعلبك [٢] .

ثالثا: تدعم وجوده في المناطق السابقة بإخضاعه لمناطق جديدة هي معرة النعمان ، ،وكذلك كفر طاب ،وبعرين [٣] و بالتالي دعم نفوذه السياسي هناك وسيطر علي خطوط التجارة المارة بها .

و الواقع إن نظرة متأنية لخريطة بلاد الشام عصر الحروب الصليبية تؤكد لنا أن المناطق الأخيرة التي ضمها وقعت إلي الشرق من نهر العاصي ، وفيما بين إمارتي أنطاكية و طرابلس و بالتالي توسع نحو الشمال ، وصارت المنطقة الفاصلة بين دمشق و حلب في اغلبها تابعة لسيطرته السياسية.

رابعاً : الأمر المؤكد أن ذلك الانتصار البارز جعل الخلافة العباسية تدرك أنها أمام قائد مسلم واعد يمكن أن يراهن عليه ليكون سيدها في بلاد الشام ، وهكذا اعترفت الخلافة بصلاح الدين كسيد علي مصر و الشام ووصلت بالفعل رسل الخليفة المستضيء بالله

١ـنعمان جبران ،دراسات في تاريخ الأيوبيين و المماليك ، ص ٨٤.

٢ـ نفسه ، ص ٨٤.

٣ نفسه ، نفس الصفحة .

حاملة معها الخلع ،و التقليد بحكم الإقليمين المذكورين [1] ،وبالتالي أكتسب الشرعية من بغداد ، و تفوق ،حربياً و سياسياً علي كافة أقرانه .

لقد أكدت معركة قرون حماه علي حقيقة لا مناص من الإقرار بها ، وتعني أن الزنكيين بعد عماد الدين زنكي ،وابنه نور الدين محمود أوجد فراغاً سياسياً واضحاً عمل ذلك القائد المنتصر علي شغله دون أن يجد منافساً حقيقياً .

جدير بالذكر ، لم يقف رد الفعل الزنكي عند هذا الحد بل أن سيف الدين غازي حاكم الموصل اتجه إلي استخدام قواته من أجل وقف التوسع الأيوبي ، وألتقي الطرفان في معركة تل السلطان عام ١١٧٥م [2] و فيها انتصر صلاح الدين الأيوبي ، وفر حاكم الموصل إليها .

و فيما بعد ذلك الانتصار اتجه إلي أن يخضع مناطق في شمالي الشام مثل بزاغه ، وإعزاز ، ومنبج [3] ، وقد أدرك أن ذلك من شأنه أضعاف الموصل ، وهي مناطق واقعة علي خطوط التجاه بين العراق وبلاد الشام و إعاقة اتصالها المباشر بحلب إلي حد ما ، بل اتجه إلي حصار الأخيرة في ٢٥ يونيو ١١٧٦م ، عندما لم يتمكن من إخضاعها عقد صلحاً مع حكامها .

الأمر المؤكد ، أن معركتي قرون حماه ، وتل السلطان عام ١١٧٥م ، أكدتا لصلاح الدين الأيوبي ضرورة إخضاع كل من حلب و الموصل مهما طال الزمن و اشتدت العقبات لأن ذلك هو السبيل الوحيد للقيام بجهوده الصادقة نحو جهاد الصليبيين .

كما لا نغفل الإقرار هنا بأن خوض الجيش الأيوبي لمعركتين كبيرتين في عام واحد و خروجه منتصراً منهما يعكس قدرته علي أحداث تغييرات عسكرية ، وسياسية في المنطقة خلال مرحلة زمنية محدودة ، ومن الملفت للانتباه ، أن الصليبيين خلال تلك الأحداث التاريخية التي وقعت مع ملاحظة اكتمال تلك القلعة لن يتم إلا بعد ذلك بثلاثة

١- نعمان جبران ،دراسات في تاريخ الأيوبيين و المماليك ، ص ٨٤ ، وعن العلاقات الأيوبية العباسية أنظر : محمد الحاج فلفل ، علاقة الأيوبيين في مصر و الشام بالخلافة العباسية ، رسالة ماجستير غير منشورة كلية الآداب – جامعة القاهرة عام ١٩٧٧م.

٢- عن معركة تل السلطان أنظر : ابن واصل ، مفرج الكروب ،جـ٢ ،ص ٣٨- ص ٤٢ ، سعداوي ، التاريخ الحربي ، ص٦٨ – ص ٧٠ ، مصطفي الحياري ، صلاح الدين ، ص ١٩١، عدنان جبران ،دراسات في تاريخ الأيوبيين ، ص٨٥.

٣-نعمان جبران، دراسات في تاريخ الأيوبيين و المماليك، ص ٨٥.

عقود و تحديداً في عهد السلطان الكامل محمد الأيوبي (١٢١٨- ١٢٣٨م) ،و تحديداً في عام ١٢٠٧-١٢٠٨م [١] ، ومما يذكر هنا ، أنه تم حفر بئر في القلعة المذكورة . و مما يذكر هنا ، أنه تم حفر بئر في القلعة المذكورة . عرف باسم بئر يوسف من أجل تزويدها بالماء ،و قد اعتبر البئر المذكور آية من آيات المعمار و يقال أن هناك ٣٠٠ درجة كانت تؤدي إلي قاعه [٢] .

وقد انقسمت القلعة في جميع مخططاتها إلي قسمين متميزين الشمالي وهو مستطيل الشكل ، أما الجنوبي الشرقي فقد انفصل عن القسم الأول عن طريق سور سميك ، وكان يتم الوصول إلي القسم الشمالي عن طريق بوابة أطلق عليها بوابة الدرج [٣] .

بصفة عامة ، من الملاحظ أن المسلمين – عموماً – في صراعهم المرير مع الصليبيين لم يحتاجوا إلي تشييد العديد من القلاع [٤] ؛ نظراً لعدم معاناتهم أصلاً من نقص العنصر البشري ، كما أنهم كانوا هم أصحاب الأرض التي تعرضت للغزو الخارجي الصليبي .يبقي أن ألفت نظر القارئ إلي أن هناك من علماء الآثار من اهتم ، بدراسة قلعة الجبل ومن أمثلتهم كريزويل Creswell – عمدة الآثار الإسلامية ، و كازانوفا Cassanova ؛ مما عكس إدراكهم العميق لأهميتها ،و دورها في تاريخ تلك المرحلة من مراحل الصراع الأيوبي الصليبي ،و حتى فيما بعد من عصور التاريخ وسيطاً و حديثاً [٥] .

١- محمد مؤنس عوض ، الحروب الصليبية ، العلاقات بين الشرق و الغرب ، ص ٢١٠ كليفورد بوزورث ، الأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي دراسة في التاريخ و الأنساب ، ت. حسين علي اللبودي و مراجعة سليمان إبراهيم العسكري ،ط. القاهرة ١٩٥م ،ص٩٤ ، شحاته عيسي ، القاهرة ،ط. القاهرة ١٩٩٩م، ص ١٢٤.

٢- مارجليوث ، القاهرة و بيت المقدس و دمشق ، ت . خالد عيس و احمد غسان سبانو ،ط. دمشق ٢٠٠٠م ، ص ٥٦.

٣- نفسه ، ص ٥٦.

٤- أنظر عن القلاع الإسلامية في ذلك العصر هذه الرسالة المهمة ؛ أجفان الصغير ، القلاع في فترة الحروب الصليبية و دورها الاقتصادي و الاجتماعي و الإداري عند المسلمين في بلاد الشام ، رسالة ماجستير – كلية الآداب – جامعة دمشق ١٩٩٥م ، عبد الرحمن زكي ، " قلاع العالم العربي في العصر الوسيط " الدارة ، السنة (٢) العدد (١) مارس ١٩٧٦م ، ص ٧٦- ص ٨٩. ٥

٥- كما لا نغفل كذلك دراسة مهمة صدرت في ليدن عام ١٩٩٥م و هي :

Rabbet, The Citadel of Cairo , London 1995.

و يلاحظ أنه خلال ذلك العام الذي أمضاه في أرض الكنانة عمل علي تشييد أسطول قوي كي يواجه الصليبيين في جبهة البحر [٢] ، وعدم الاكتفاء بمنازلهم براً و كان إهمال أمره في أواخر العصر الفاطمي قد أدي إلي تزايد الطماع الصليبية تجاه سواحل مصر ،و ستتوالى الأحداث فيما بعد لتؤكد أهمية ما أقدم عليه سواء في البحر المتوسط أو في البحر الأحمر .

و قد تزايدت سفن ذلك الأسطول ، واحتوت علي أنواع متعددة مثل الشواني [٢] و البطس [٣] ، والطرادات [٤] .

و عن طبوغرافية القاهرة بصفة عامة في العصر الأيوبي أنظر :

Mackenzie, Ayyubid Cairo , ATopogrphical study, Cairo 1982.

١-عن ذلك أنظر : شاكر مصطفي ، صلاح الدين ،ص ١٨٥.

ويلاحظ أن ذلك أمر نبه إليه أسد الدين شيركوه حيث اوصي اتباعه قبيل وفاته بالاهتمام بالأسطول ووفق ما ذكره المقريزي قال " احذروا التفريط في الأسطول " عن ذلك أنظر : اتعاظ الحنفا ،جـ٣ ، ص ٣٠٧ و عن الأسطول الأيوبي أنظر : وفيق بركات ، " صفحات من تراثنا البحري الأسطول البحري في الفكر العسكري للناصر صلاح الدين " مجلة التراث العربي ، العدد (٣٥) ، (٣٦) أبريل – يوليو ١٩٨٩م ، ص ١١٧- ص ١٣٨.

٢- الشواني نوع من السفن الطويلة و كان مجهز لاً بنحو ١٤٠ مجدافاً عنه انظر : علي محمود فهمي ، التنظيم البحري الإسلامي في شرق البحر المتوسط من القرن السابع حتى القرن العاشر الميلادي ،ت . قاسم عبده قاسم ،ط. القاهرة ١٩٩٧م ، ص ١٣٥- ١٣٦، جمعه الجندي ، الاستيطان الصليبي في فلسطين ،ط. القاهرة ٢٠٠٦م، ص ٢٤٦ ،حاشية (١) .

٣- البطس جمع بطسه ،وهي مركب للحرب أو أعمال التجارة و هي سفينة كبيرة الحجم متعددة القلوع وقد يصل عددها إلي ٤٠ قلعاً للسفينة الواحدة ،وتعد من أشهر السفن في عصر الصليبيات ، واحتوت علي عدة طوابق و حملت أعداداً كبيرة من الأفراد ، عنها أنظر :

درويش تخيلي ، السفن الإسلامية علي حروف المعجم ،ط. الإسكندرية ١٩٧٤م ، ص ١٦ ، احمد محمد عدوان ، العسكرية الإسلامية في العصر المملوكي ،ط. الرياض ١٩٨٥م ،ص ١٠٤.

٤- الطرادات نوع من السفن تحمل نحو ٤٠ فارساً و كانت تستعمل لحمل الخيول و الفرسان ، عنها أنظر :

ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص٤٨ ، حاشية (٣) .

من جهة أخري ، قام السلطان الأيوبي بإقامة سور حول القاهرة ضم موقع القطائع و كذلك العسكر ، و قد اشرف علي ذلك الأمر بهاء الدين قراقوش ، ويقال أ نذلك السور امتد بطول ٢٩٣٠٠ ذراع [١]، و كان الهدف دفاعياً بطبيعة الحال ، والأمر المؤكد أن القاهرة كان تفي قلب اهتماماته من و لذلك عمل علي تحصينها .

كذلك حرص علي الاهتمام بالمدن الساحلية ؛ توقعاً لغدر الصليبيين فقد أقام سوراً للإسكندرية - المدينة التالية في الأهمية للقاهرة – وقام بإلقاء (٤٠) من الأعمدة [٢] التي ترجع إلي العصر الروماني بالشواطئ من أجل إعاقة تقدم الأعداء ، كما أتجه صوب دمياط ، و جعل سورها يمتد بطول (٤٦٣٠) ذراعاً ، ويقال أنه أنفق في سبيل ذلك مليون من الدنانير [٣] مما عكس ضخامة حجم الإنفاق الدفاعي في مصر خلال تلك المرحلة ، وإدراكه لأهمية القيام بذلك .

من جهة أخري ،حرص علي تقوية قلعة تنيس الواقعة علي بحيرة المنزلة مع سور لها و أشرف شخصياً علي ذلك [٤] ؛ مما عكس أنه كان في قلب الأحداث و تابع الأمور بنفسه ،و لم يعتمد علي تقارير أتباعه .

١- شاكر مصطفي ، صلاح الدين ،ص ١٨٦.

عن ذلك أنظر بالتفصيل هذه الأطروحة المهمة ؛ أسامة طلعت عبد النعيم ، أسوار صلاح الدين و أثرها في امتداد القاهرة حتى عصر المماليك ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآثار – جامعة القاهرة عام ١٩٩٢م ، صالح لمعي مصطفي ، التراث المعماري الإسلامي في مصر ،ط. بيروت ١٩٨٤م ، ص ٧٤.

٢- شاكر مصطفي ، المرجع السابق ،ص ١٨٧.

٣- نفسه ، نفس الصفحة .

٤- نفسه ، نفس الصفحة .

و تنيس وقعت بين الفرما و دمياط ، وموقعها في قاع بحيرة المنزلة ، وقد اشتهرت بصناعة المنسوجات و أشار إلي ذلك الرحالة و الجغرافيون المسلمون في العصور الوسطي ، وفي عهد الحاكم بأمر الله احتوت علي ما يقرب من ٢٥٠٠ حانوت ، و١٠٠ معصرة ، و١٥٠ دكاناً لبيع الحرير و المنسوجات عموماً و ١٦٠ طاحونة و ٥٠٠ منسج يعمل فيها ١٠,٠٠٠ عامل عنها أنظر : ياقوت ، معجم البلدان ،ط. بيروت ، ب- ت ،جـ١ ، ص ٦٠ ، ابن بسام ، أنيس الجليس في أخبار تنيس ،

كما اتجه صوب تقوية دفاعات شبه جزيرة سيناء [1] من خلال إقامة قلاع بها ، كذلك أقام صهاريج للمياه لإدراكه أنها بوابة مصر الشرقية ، و إن أي غزو بري لها يبدأ من تلك المنطقة الصحراوية القاحلة المخلخلة سكانيا ،و الواسعة الأرجاء ، و التي من الصعب حمايتها .

علي أية حال ،ظل انتصار السلطان الأيوبي المذكور بسيطرته علي دمشق مبتوراً ،و ذلك لأنه لم يستطع إخضاع جارتها الشمالية حلب ، و يلاحظ أن الأخيرة علي جانب كبير من الأهمية إذ أنها مفتاح شمالي بلاد الشام ، وفي نفس الحين تواجه إمارة أنطاكية الصليبية بالإضافة إلي أنها تمثل مع الموصل خطاً دفاعياً استراتيجياً علي جانب كبير من الأهمية ، وفي نفس الحين لا نغفل أهميتها التجارية حيث عرفت فيها أسرات بعينها اشتهرت بتثمير الأموال . علي حد قول ياقوت الحموي [2] ، كما اشتهرت بأسواقها العامرة بكافة المنتجات و السلع ، والأمر المؤكد أن التوسعات الأيوبية خلال مرحلة الوحدة توجهت أيضاً من خلال دوافع اقتصادية لا تنكر ، إذ أدرك صلاح الدين أن المكاسب المادية الضخمة التي ستصب في خزانته ستعينه علي تكوين جيش يمثل قوة ضاربة في الشرق بإمكانها تغيير خريطة السياسة في المنطقة

= تحقيق جمال الدين الشيال ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، عدد (١٤) عام ١٩٦٧م ، ص ١٥١- ص ١٨٩م ،عطية القوصي " من أخبار المدن الإسلامية المندثرة تنيس " ، المجلة العربية للعلوم الإنسانية ، العدد (٢) م(١) ، عام ١٩٨١م ، ص ٥٧- ص٩٧ ، أمينة الشور بجي ، رؤية الرحالة المسلمين ، ص ٣٢٢- ص ٣٢٣.

١- عنها أنظر : نعوم شقير ، تاريخ سيناء القديم و الحديث ،ط. القاهرة ١٩١٦م ، صلاح عمار ، المدخل الشرقي لمصر ،ط. القاهرة ، احمد رمضان ،شبه جزيرة سيناء ، في العصور الوسطي ،ط. القاهرة ١٩٧٧م .

٢- معجم البلدان ،جـ٢،ص ٢٨٦.

عن أهميتها التجارية أنظر : شيخ الربوة ، نخبة الدهر في عجائب البر و البحر ، تحقيق مهرن ، بطرسبرج ١٨٣٥ ، ص ٢٠٢ ، الغزي ، نهر الذهب في تاريخ حلب ،ط. حلب ١٩٤٢م ،جـ١ ، ص ١٤٥ ، هايد ، تاريخ التجارة في الشرق الدني في العصور الوسطي ،جـ١ ، ص ١٨٠ ، أحمد رمضان ، المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية ،ط. القاهرة ١٩٧٧م ، ص ١٠٧ ،محمد مؤنس عوض ، الأسواق التجارية في عهد الدولة النورية ١١٤٦-١١٧٤م ، الدارة ، العدد (٣) السنة (١٦) ربيع الآخر –جمادي الأولي ، جمادي الآخر عام ١٤١١هـ ، ص ٧٧.

و في معرض حديثنا عن الدافع الاقتصادي في التوسعات المذكورة لا نغفل أن حلب و كذلك الموصل وقعتا علي طريق الحرير [1] وهو خط تجاري بالغ الأهمية ، وعابر للقارات امتد من الصين شرقاً إلي غرب آسيا و منها إلي آسيا الصغرى فأوروبا ، ولا نغفل هنا الإشارة إلي أن تاريخ القوي الدولية الكبرى فلي منطقة شرقي البحر المتوسط في العصور الوسطي سواء كانت قوي إسلامية محلية ، أو قوي خارجية أوروبية مثل القوى الصليبية ، أو الآسيوية كالمغول [2] – فيما بعد في القرن ١٣ م هو جزئياً تاريخ التوسع من اجل السيطرة علي الطريق المذكور مع عدم أغفال الدوافع السياسية و العسكرية الأخرى بطبيعة الحال .

١- فيما يتصل بالحرير Silk ، من المقرر أن مصدره دودة القز ، وكان ذلك في جبال آسام في شمالي الهند وفي بلاد البنغال إلا انه في شمال الصين تعلم الإنسان لأول مرة في تاريخه كيفية القيام بنسيج خيوط الحرير من الشرنقة ، وتم ذلك في حوض نهر تاريم فيما عرف باسم تركستان الصينية . وفيما بعد ظهر إلي الوجود طريق الحرير Silk Road ، وقد بدأ من الصين و اخترق ما عرف بمنغوليا ، وحوض نهر تاريم ، وممرات أفغانستان ، وبلاد فارس ،حتى وصل إلي بلاد الرافدين ثم إلي بلاد الشام ، وهناك تفرع إلي آسيا الصغري و منها إلي أوروبا و يلاحظ أن الجيولوجي و الرحالة الألماني فردينادند فون ريشتهوفن Ferdeneand Von Richthoffen١٨٣٣- ١٩٠٥م) قام عام ١٨٦٠م برحلاته في الشرق و عاد أدراجه إلي ألمانيا عام ١٨٧٢م و اطلق علي الطريق المذكور تعبير " طريق الحرير " ، ويلاحظ انه لم يكن مجرد طريق عالمي للتجارة بل طريق للفن و الأدب و الدين عن ذلك انظر :

هايد : تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطي ، ت. محمد رضا ،ط. القاهرة ١٩٨٥م ، ص ٨ ،موريس لومبار الإسلام في مجده الأول ، ت إسماعيل العربي ،ط. الدار البيضاء ١٩٩٠م ، ص ٢٧١ – ص ٢٧٢ ، مجدي غنيم ، الحرير ،ط. القاهرة ١٩٩٣م ، عبد الرحمن سامي ، القوي الحق في بيروت و دمشق ،ط. بيروت ١٩٨١م ، ص ١٠٣ ، علي أبو عساف " طريق الحرير و الطرق التجارية الأقدم " ، مجلة دراسيات تاريخية ، جامعة دمشق ، السنة (١٢ العددان (٣٩) ، كانون الأول ١٩٩١م ، ص ٧٢- ص٨٢ ، عبد الرحمن حميدة ، " بين ابن بطوطة و ماركو بولو " ، العدد المذكور ، ص ٨٣- ص ٩٥، محمد حرب فرزات ، " حوار الحضارات علي طريق الحرير بين الصين و الشام ، العدد المذكور ،، ص٩٦- ص ١١٨ ، نعمان جبران ، محاولات المغول السيطرة علي طريق الحرير أسباب و نتائج " ، العدد المذكور ،ص ١٣٨ – ص ١٥٥ .

٢- انظر البحث القيم الذي أعده نعمان جبران و المشار إليه سابقاً .

نخلص من ذلك إلي حقيقة أراها مؤكدة ، هي أن السلطان الأيوبي البعيد النظر أدرك أن إخضاعه لتجارة التوابل [١] في مصر عبر البحر الحمر ، وتجارة الحرير المارة بشمالي الشام تمثلان بالنسبة له أهمية اقتصادية ، وبالتالي سياسة استراتيجية كبرى ،وسوف تصب في النهاية في المواجهة مع الصليبيين .

كذلك لا نغفل أن تكوين دولة مترامية الأطراف ما كان من الممكن أن يحدث بدون إخضاع شمالي بلاد الشام لسيادته و من هنا جاءت أهمية التطلع شمالاً صوب حلب .

تجدر الإشارة إلي أن صلاح الدين خشي صاحب الموصل عز الدين مسعود نظراً للتنسيق القائم بين كل من الموصل و حلب ضده ، وقد عمل علي التوسع و دخل الرقة ،ونصيبين ،والرها ،وسنجار ، وحران ، ولكنه لم يتمكن من إخضاع الموصل لسيطرته .

و قد أتجه في عام ١١٨٣ نحو آمد تمكن من إخضاعها ثم قام بمحاصرة حلب عدة أيام حتى قام بتسليمها له عماد الدين زنكي الثاني في ٢٢ يونيو ، وقام بتنصيب ابنه الظاهر غازي حاكماً عليها [٢] .

ولا نزاع في أن إخضاع حلب مثل إنجازاً بارزاً للسياسة التوسعية الأيوبية ، لأنه كان يعني أن القاهرة ، ودمشق ، و حلب تم ضمهم لكيان سياسي واحد ،و صار الصليبيون يعانون من جبهة موحدة جنوباً و شرقاً و شمالاً ، وهو أمر لم يحدث منذ عهد طويل .

كما تأكد لنا أن زمن السيادة الزنكية ولي ، و أدبر ، و لم يعد للزنكيين سوي الموصل حاضرة شمالي العراق .

١- سونيا هاو ، في طلب التوابل ، ت. محمد عزيز رفعت ،ط. القاهرة ١٩٥٧م ،ص ١٣- ص ٧٣، سعيد عاشور ، " قالوا طريق الحرير و نقول طريق التوابل محمور التجارة العالمية في العصور الوسطي " ، ندوة التجارة العالمية عبر العالم العربي علي مر عصور التاريخ ، اتحاد المؤرخين العرب ،ط. القاهرة ٢٠٠٠ ، ص ١١-ص ١٥ ،محمود الحويري ، الأوضاع الحضارية ، ص ١٣٢ ، زكي نقاش ، العلاقات الاجتماعية و الثقافية و الاقتصادية ، ص ١٨٨.

٢- محمود الحويري ،مصر في العصور الوسطي ،ط. القاهرة ١٩٩٦-ص١٩٨.

جميل جمول ،حلب و الحروب الصليبية ١٠٩٨- ١١٨٣م ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب و العلوم الإنسانية - جامعة دمشق عام ٢٠٠٠م ، ص ٤٧٢.

الأمر المؤكد ، أن تأخر إخضاع حلب إلي عام ١١٨٢م ، أثر بالفعل علي قضية الجهاد ضد الصليبيين ؛ إذ أن صلاح الدين الأيوبي لم يكن له أن يواجههم بدون تأمين خطوطه الخلفية في صورة خط دمشق - حلب ، وليس من قبيل المصادفة أنه بعد أربعة أعوام فقط من إخضاع حاضرة شمالي بلاد الشام المزدهرة ، حدثت المعركة الفاصلة ضد الصليبيين عام ١١٨٧م ، مما عكس التلازم بين الجبهتين الداخلية مع المسلمين و الخارجية مع الصليبيين . وهو أمر يؤكد تماماً أن القضيتين لم ينفصلا و ذلك علي العكس ، ما صوره البعض من أنه أراد تكوين ملك شخصي له دون أن يتم الربط بين ذلك ، و الهدف النهائي في صورة جهاد الغزاة الصليبيين.

و لا ريب في أن السيطرة علي حلب جعل الخطر الأيوبي يحدق بآخر المراكز الزنكية في صورة الموصل ، ولم يتأخر أمرها مع ذلك القائد الذي يعرف جيداً قيمة عنصر الزمن فبعد عامين فقط و تحديداً في عام ١١٨٥م و فأرسل صاحبها عز الدين مسعود والدته إلي صلاح الدين من أجل استعطافه غير أنه ردها و استمر في حصار المدينة ، وعندما أدرك صاحبها عدم جدوى الاستمرار في المقاومة ، اتجه إلي طرق أبواب الدبلوماسية ، وتم الاتفاق بالفعل علي أن تظل الموصل تحت سيطرة عز الدين مسعود علي أن تكون الخطبة لصلاح الدين ، ويتعهد بأن يقدم للسلطان الأيوبي المساعدة العسكرية عندما يحتاجها [1] ، وقد كان الأخير كريماً عندما قدم الهدايا لصاحب الموصل و أقاربه حتى يزيل ما في نفوسهم من ألم الخضوع لنفوذه السياسي. وواقع الأمر ، أن التوصل إلي ذلك الاتفاق مع المواصلة شكل مكسباً كبيراً للسياسة الأيوبية ، فقد حصل تم الحصول علي مكسب سياسي بارز دون إراقة الدماء ، كما أنه اعتراف المواصلة بنفوذه و الخطبة له ، لم يعد محتاجاً لإخضاعها عسكرياً لسيطرته خاصة أن صاحبها تعهد بتقديم المساعدة العسكرية عندما يحتاج الأيوبيون إلي ذلك .

و هكذا ، صار لدى صلاح الدين الأيوبي عدة مدن إفريقية و آسيوية علي جانب كبير من الأهمية الاستراتيجية القاهرة ، دمشق ، وحلب، ودانت له الموصل بالولاء .

١- عن الاتفاق بين صلاح الدين و حاكم الموصل أنظر: ابن شداد ، النوادر السلطانية ،ص ٧٠ ، ابن واصل ،مفرج الكروب ،جـ٢ ،ص ١٧١- ص ١٧٢ ، ابن شاهنشاه الأيوبي ،مضمار الحقائق ،ص ٢٢٣ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ،جـ ٥، ص ٢٠٧ . ،مفرج الكروب ،جـ٢ ،ص ١٧٢- ص ١٧٣.

و بالتالي بعد عام ١١٨٥م بمثابة نقطة فارقة في تاريخ السيطرة الأيوبية علي قطاع جغرافي له شأن بارز امتد من شمالي العراق حتى جنوبي مصر ووصل إلي برقة غرباً و إلي الحجاز شرقاً ، و هي مناطق ذات أهمية دينية - من خلال وجود مكة المكرمة و المدينة تحت رعايته - و كذلك اقتصادية و سياسية ؛ ولا شك في أن ذلك كله وفر للسلطان أن يرفع لواء الجهاد ضد الصليبيين مسلحاً بتلك الإمكانات التي سعي إلي أن تتوافر في قبضته علي مدى أعوام طويلة مضت ، وجعلته يملك جيشاً اعتبر أكبر قوة ضاربة في الشرق [١] .والواقع أن المدخل المنطقي لتناول حرب الاستنزاف الأيوبية تجاه الصليبيين ؛ يتطلب منا التعرض لفكرة الجهاد الإسلامي عصر الحروب الصليبية علي اعتبار أنها فكرة محورية ،و مركزية ،و أثرت علي قطاعات واسعة من أبناء ذلك العصر قيادات و جماعات ، ولذلك ؛ فإن تجنبها ، و الوقوع في دائرة سرد الأحداث لا يجعلنا ندرك الأبعاد الأيديولوجية الكامنة وراء ذلك المتصارع الحربي والسياسي حينذاك ، ويلاحظ أن كتابات قطاع كبير من المستشرقين الذين تناولوا عصر صلاح الدين الأيوبي بالدراسة أغفلوا متعمدين ذلك الجانب حتى يتم إفراغ القضية من مضمونها .

و الواقع أن الجهاد لغة ، هو التعب و المشقة ، ويقال جهد الرجل في الأمر جهدا ، ويقال أيضاً بذل المرء جهده أي انه بذل طاقته [٢] ، ومن الجلي البين أن الجهاد احتل مكانة متميزة في الإسلام ، ويتضح ذلك من خلال الأهمية الكبيرة التي يعلقها القرآن

١- عن الجيش الأيوبي عامة أنظر : نظير حسان سعداوي ، جيش مصر في أيام صلاح الدين ،ط. القاهرة ١٩٥٩م ، محسن محمد حسين ، الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين ،ط. بيروت ١٩٨٦م ، صلاح الدين البحيري ،" ديوان الجيش في الدولة الأيوبية " الموسم الثقافي للجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، ١٩٧٦م – ١٩٧٧م ،ط. القاهرة ١٩٧٨من ص ١٦٩- ١٩٠ ، سعيد عاشور ، " البنية البشرية لجيوش صلاح الدين " ، المجلة العربية للعلوم الإنسانية ، العدد (٣٧) ،عام ١٩٩٠م، ص٨- ص ٣١.

Elbeheiry, Les Institutions de L,Egypte au Temps des Ayyubides Lille 1972.

٢- عن الأصل اللغوي لكلمة الجهاد ، أنظر : ابن منظور ، لسان العرب المحيط ، بيروت ب- ت ،جـ١ ،ص٥٠٢- ص ٥٢١، المقري الفيومي ، المصباح المنير ،ط. القاهرة ١٩٢٦ م ، ص ١٥٥ ، علي عبد الحليم محمود ، ركن الجهاد أو الركن الذي لا تحيا الدعوة إلا به ،ط. القاهرة ١٩٩٥م ، ص ٢٧ ؛ الشيخ الركابي ، الجهاد في الإسلام ،دراسة موضوعية تحليلية تبحث بالدليل العلمي الفقهي عن الجهاد و عناصره في التنزيل و السنة ،دمشق ١٩٩٧م ، ص ١٥ ظافر القاسمي ، الجهاد و الحقوق الدولية العامة في الإسلام ،ط. بيروت ١٩٨٢م ، ص ١١.

الكريم عليه ، وعلي القائمين به [١] ، ثم جاءت الأحاديث النبوية الشريفة لتدل علي نفس الاتجاه نحو تعظيم شأن المجاهدين [٢] .

و من الجدير بالذكر ؛ أن الجهاد في الإسلام قد مر بعدة مراحل حتى وصل إلي الوضع الذي صار من خلاله علي المسلمين أن يقاتلوا المشركين كافة ، وإذا تتبعنا آيات الجهاد في القرآن الكريم ، وجدنا أن في أول الأمر كان هناك التوجيه من الله عز ، و جل نحو كف المسلمين عن القتال في مكة ، وفي أول العهد بالهجرة النبوية إلي المدينة المنورة [٣] ، ثم من بعد ذلك أذن للمسلمين بالقتال لمواجهة أعدائهم [٤] ، ثم فرض القتال عليهم لمن قاتلهم ، وذلك باستثناء من لم يقاتلوهم [٥] ، وأخيراً ؛ فرض عليهم قتال المشركين كافة [٦] .

و فكرة الجهاد في الإسلام ؛ يمكن اعتبارها ذات صفة حضارية من حيث أنها ارتبطت بالمثل العليا ، ولم يكن الإسلام ليقاتل القوى المناوئة له لمجرد القتال و السلب و النهب – كما زعم قطاع من المستشرقين - وإنما سعي إلي تقدم الإنسانية

١- من ذلك قوله تعالي : وجاهدوا بأموالكم و أنفسكم في سبيل الله " التوبة رقم ٩ آية (٤١) . " جاهدوا في الله حق جهاده " ، الحج رقم (٢٢) آية (٧٨) ، " وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة و من رباط الخيل ترهبون به عدو الله و عدوكم " ، الأنفال رقم (٨) آية (٦٠) .

٢- عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال : قلت لرسول الله : أي الأعمال أفضل ؟ فقال الإيمان بالله و الجهاد في سبيله " ، حديث متفق عليه ، وعن انس بن مالك رضي الله تعالي عنه قال " إن رسول الله صلي الله عليه وسلم قال : لغزوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا و ما فيها ".

عن ذلك أنظر : مسلم . صحيح مسلم ،ط. القاهرة ،جـ٣ ، ص ١٣٥٦- ص ١٤٥٠، الترمذي ، سنن الترمذي . تحقيق احمد شاكر مصطفي الحلبي ،ط. القاهرة ،جـ٤ ،ص ١٦٧.

٣- قال تعالي : " كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة و آتوا الزكاة " النساء رقم (٤) آية (٧٧) .

٤- قال تعالي :أذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا و إن الله علي نصرهم لقدير " الحج رقم (٤) آيات (٣٩ ، منير الغضبان ، التربية الجهادية ،ط. المنصورة ٢٠٠٢م ، ص ١٧.

٥- قال تعالي : " قاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم " البقرة ، رقم (١٢) آية (١٩٠) .

٦- قال تعالي : " وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة " التوبة رقم (٢٩) ، آية (٣٦) .

من خلال نشر أفكاره الدينية المتحضرة ، التي تتفق أصلاً مع الفطرة الإنسانية ، ولا نغفل هنا الإشارة إلي اعتناق الإسلام لم يكن بالوسائل القسرية ، ولم يكن هناك إكراه في فرضه علي نفوس غير المعتنقين له ، وهناك الآية القرآنية الصريحة القائلة " لا إكراه في الدين " [١] ، وهكذا أقر القرآن الكريم مبدأ الحرية الدينية منذ زاد علي ١٤ قرناً مع عمر الزمان ، وهذا يبين لنا أن الجهاد في الإسلام لم يكن ليعني توسعاً إقليمياً دون القيام بالالتزام الحضاري تجاه الشعوب المفتوحة [٢] خاصة أن الإسلام نفسه حضارة .

من جهة أخرى ،فإن فكرة الجهاد في الإسلام ذات طابع دفاعي أصلاً ، وهي تتجاوز حدود الناحية الحربية المحضة إلي ما هو أرحب من ذلك ، فالدفاع هنا هو دفاع عن الإنسان نفسه ضد عوامل تقييد حريته ،خاصة تلك المتمثلة في المعتقدات ، و التصورات ، و كذلك الأنظمة السياسية القائمة علي الحواجز العنصرية ،والطبقية ، والاقتصادية التي كانت سائدة حينذاك [٣].

و قد أدرك مفكرو الإسلام أهمية فريضة الجهاد، و عظم شأنها ، ونجد مثالاً واضحاً دالاً علي ذلك لدي العامري (ت ٩٩٢م) عندما قرر أن أقسام العبادات في الإسلام منها العبادات النفسانية كالصلاة ، والبدنية كالصيام ، والمالية كالزكاة ، والعبادة المشتركة بين هذه العبادات هي الحج ، أما الجهاد ؛ فقد اعتبره ذلك المفكر المسلم العبادة الملكية [٤] ، أما ضرورة القيام به فيتمثل في أنه " لولا قيام أهل الدين بالمحاماة عن دينهم بالسيف ، لأجتاحهم أعداؤهم ، ولظهر الفساد في البر والبحر ، و لهدمت صوامع ، وبيع ،وصلوات ، ومساجد " [٥] .

١- البقرة رقم (٢) آية (٢٥٦). محمد أبو زهرة ، نظرية الحرب في الإسلام ،ط. القاهرة ١٩٦١م،ص ١٨.

٢- جمال الدين محمود ، الإسلام و قضية السلام و الحرب ،ط. القاهرة ١٩٨٠م ، ص ٨٤ ،جمال الدين الرمادي ، الأمن و السلام في الإسلام ،ط. القاهرة١٩٦٣م ، ص ٩.

٣- سيد قطب ،معالم الطريق ،ط. القاهرة ١٩٨٢م ، ص ٧٢ ، نحو مجتمع إسلامي ،ط. القاهرة ١٩٨٢م ، ص ١٠١-ص ١٠٩.

٤- الإعلام بمناقب الإسلام ، تحقيق أحمد عبد الحميد غراب ،ط. القاهرة ١٩٦٧م ، ص ١٢٤.

٥- نفسه ، ص ١٤٧.

زد علي ذلك ، وجدت عدة مبادئ للحرب في الإسلام تمثلت في أن السلم هو الأساس القائم في العلاقات الإنسانية ، وإن وجدت الحرب فهي في حالات الضرورة دون عدوان ، وينبغي ألا يتأثر بالحرب من لا يشتركون فيها ثم هناك المسارعة في تلبية دعوة السلم ، و ذلك في حالة إظهار أحد الأطراف المتصارعة ميلاً حقيقياً للمسالمة ، وكف الحرب ، ثم أن الإسلام احتوى في مبادئه ضرورة الإحسان للأسرى من جيوش الكفار و المشركين [١] ؛ نظراً لكونه في الأصل جاء لهداية الإنسان وأدرك قيمته كخليفة الله تعالي في الأرض ، ومطالب بإعمارها .

وقد صار أمر الجهاد في الإسلام فرض غاية ، وفرض عين ، وكان يفرض علي من يقع عليهم العدوان فإن لم يكن منهم كفاية لصد المعتدين ، فإن الجهاد عندئذ يفرض علي من يليهم ، وأقرب الناس إليهم ، وهكذا يتسع نطاق الفرض حسب مجريات الحال ، وقدرات المعتدي الهجومية حتى يشمل أمر جهاد المسلمين أجمعهم [٢] ، و حينئذ نجد العاجزين عن الجهاد من المسلمين عليهم المجاهدة بأموالهم [٣] .

و من الملاحظ أن المسلمين السُنة أوجدوا مكانة بارزة للجهاد ، ونفس الأمر بالنسبة للشيعة الذين اعتبروه من أركان الإسلام وواحداً من أسسه [٤] ، وهكذا ألتقي السنة و الشيعة علي أهمية الجهاد علي نحو وضح في كتابات الفريقين ، وذلك يؤكد أن الجهاد لم يكن موضعاً لأي خلاف بينهم.

١- الماوردي ، الحكام السلطانية ، ط. القاهرة ب-ت ،ص ٤١ ، ابن حزم ، مراتب الإجماع في العبادات و المعاملات و الاعتقادات ،ط. القاهرة ب- ت ، ص ١١٩ ، "محمد كامل مراد ، القتال في الإسلام "، مجلة كلية الآداب بالرياض ،جـ٢ ، عام ١٩٧٢م ، ص ١١٩ ، محمد شلتوت ، الإسلام دين و شريعة ،ط. القاهرة ب-ت ، ص ٤٦٦ .

٢- السنهوري ، الإسلام و الجهاد، ط. القاهرة ب-ت ، ص ٦١ ، محمد شديد ، الجهاد في الإسلام ،ط. القاهرة ب- ت ،ص ١٥٤ ، احمد شلبي ، الجهاد و النظم العسكرية ،ط. القاهرة ١٩٧٧م ،ص٦٦ – ص ٦٧ ، محمود شاكر ، الجهاد في سبيل الله نط. الرياض ١٩٩٩م ، ص ٢٣٧- ص ٢٣٨.

٣- ابن تيمية ، الحسبة في الإسلام ،ط. القاهرة ١٤٠٠هـ ، ص ١٧.

٤- النعمان بن حيون ، دعائم الإسلام ،جـ١ ، تحقيق فيظي ،ط. القاهرة ١٩٥١م ، ص ٣٩٩ ، تأويل الدعائم ،ط. القاهرة ،جـ١ ، ص ٥١ ، كناب الاقتصاد ، تحقيق وحيد ميرزا ،ط ،دمشق ١٩٥٣م ، ص ٦٧- ص ٦٨ ، سمير الليثي ،جهاد الشيعة ،ط. بيروت ١٩٧٦م ، ص ١٣ ،حسن عباس حسن ، الصباغة .المنطقية للفكر السياسي الإسلامي ، رسالة دكتوراه غير منشورة ،كلية الاقتصاد و العلوم السياسية ، جامعة القاهرة عام ١٩٨٠م ،ص ٤١٠.

و الأمر المؤكد أن زاوية الجهاد وضحت منذ البواكير الأولي لدولة المدينة التي أسسها محمد بن عبد الله عليه الصلاة و السلام ، ويعلق المستشرق الألماني فلهوزن أمر الجهاد في ذلك العصر قائلاً : " و هكذا نشأت الدولة العربية التي كان قد أسسها محمد عليه السلام إمبراطورية بعد موته ، وتحولت الجماعة المحمدية إلي جيش تحولاً تاماً ، وصارت الصلاة و الصوم و بقية الشعائر الدينية في المرتبة الثانية بعد الجهاد [1] ووجه الاعتراض علي تلك العبارة أن الجماعة المسلمة وصفت بالمحمدية ، وهو أمر يخالف الموضوعية التاريخية الواجبة لأنها جماعة مسلمة لا محمدية كما أن الصلاة ، و الصوم ، و بقية الشعائر الدينية لم تكن في المرتبة الثانية بعد الجهاد ، ولم تكن تلك الشعائر جاهدت لإدراكها أهمية الجهاد ، و لم تكن تلك الشعائر البتة في الدرجة الثانية كما توهم ذلك المستشرق .

علي أية حال ، فإن اصطدام المسلمين مع الإمبراطورية البيزنطية ، وكذلك الدولة الساسانية كان مجالاً عملياً لتطبيق فكرة الجهاد ،ومن خلال ذلك ؛ توسع المسلمون علي حساب الكيانين الكبيرين المذكورين ، وصارت دولة الإسلام في عصر الدولة الأموية تمتد من سور الصين العظيم شرقاً إلي ما وراء جبال البرانس غرباً ، ولم يكن ذلك ليحدث بدون انتعاش فكرة الجهاد وتحولها إلي واقع معاش مع ملاحظة أن ذلك حدث خلال القرنين ٧، ٨ م لكن فيما بعد مع بوادر الانقسام و التشرذم السياسي ،و التصارع المذهبي صار المسلمون محطاً لمطامع أعدائهم ،وكانت الصليبيات من مظاهر ذلك .

و الآن نتساءل عن الدوافع التي دفعت المسلمين إلي محاربة الصليبيين بعد استقرارهم في بلاد الشام و الجزيرة.

١- تاريخ الدولة العربية ، ت. عبد الهادي أبو ريدة ، ط. القاهرة ١٩٥٨م ، ص٢٤ و عن تطور فكرة الجهاد خلال تلك المرحلة انظر:

hio State 1974,pp.142- ×Watt," The Islamic concept of Jihad", Brundage (ed)) ,The Holy war , 147.

Micheau," Jihad: ,L, Histoire ,T.XLVII, Amee 1982,p.102.

أنظر أيضا: محمد مؤنس عوض ، الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق و الغرب ، ص ١٤٥.

و الواقع أن الإجابة عن ذلك ليست بالأمر الشاق فوقائع التاريخ ذاتها تقدم الإجابة الواضحة المعالم ؛ إذ أن التعصب الذي أظهره الصليبيون تجاه الإسلام و أهله و المذابح التي اقترفوها في كل بقعة حطت بها أقدامهم ، و كراهيتهم للإسلام علي نحو تمثل في تحويل المساجد إلي كنائس [١] ، كشف للمسلمين الخاضعين للسيطرة الصليبية [٢] كذلك في المناطق الإسلامية المجاورة عن عدم إمكانية مهادنة الغزاة ، و أن دينهم في خطر ما لم يقفوا لمواجهة المعتدين ، وبعبارة أخرى ؛ أدرك المسلمون – أكثر من أي وقت مضي- أن هويتهم الدينية مستهدفة . و يضاف إلي ذلك أن المذابح التي اقترفها الغزاة و عمليات التطهير العرقي جعلت فكرة الجهاد تبعث بعثاً جديداً من مرقدها علي نفس الأرض التي سالت عليها دماء آلاف المسلمين المدنيين الأبرياء الذين تم سفك دمائهم علي أيدي الغزوات المتبربرة ، فإذا أضفنا إلي ذلك كله أن الصليبيين حاربوا المسلمين و حرموهم من لقمة عيشهم ،و حولوا الكثيرين منهم إلي مجرد لاجئين يتجرعون كأس الذكري الأليمة ، ذكري الاجتياح ،والمذابح ، والطرد ، والهوان ، وأصبحوا أمام ظاهرة " الجفل " [٣] ،و تعني عشرات الآلاف – كما هو مفترض – من المسلمين النازحين من المدن المنكوبة

١- ابن جبير ، الرحلة ،ص ٢٧٦ ، الذهبي دول الإسلام ،جـ٢ ،ص ١١٩ ، ابن ايبك الدوادراي ، الدر المطلوب ، ص ٢٠٣ ، محمد فنحي الشاعر ، أحوال المسلمين ، ص ٢٣ ،جمال الدين الشيال ، تاريخ مصر الإسلامية ،جـ٢ ، ص ١٠٧ ، جوزيف نسيم ، الوحدة و حركات اليقظة العربية ،ط. بيروت ١٩٨١م ، ص ١٧.

٢- عنهم أنظر : العماد الأصفهاني ، الفتح القسي ،ط. القاهرة ١٣٢١هـ ، ص ٣٢ ، حسن عطية " المسلمون في الإمارات الصليبية في بلاد الشام " ، ضمن أعمال مؤتمر بلاد الشام في فترة الصراع الإسلامي الفرنجي ، جامعة اليرموك ،ط. أربد ٢٠٠٠م ، ص ٣٧٥- ص ٤٢٦، المقاومة الشعبية الفلسطينية ضد الفرنجة الصليبيين ١٠٩٩- ١١٨٧م ضمن أعمال مؤتمر بلاد الشام ، في فترة الصراع الإسلامي الفرنجي ، أربد ٢٠٠٠م ،ص ٢١١- ص ٢٣٩.

prawer ,, West confronts East in The Middle Ages," B.J.A.C.C.,vol .XII, Cairo 1989,p.17.

٣- عن ذلك أنظر : ابن طولون الصالحي ، القلائد الجوهرية في تاريخ الصلاحية ، تحقيق محمد احمد دهمان ،جـ١ ،ط. دمشق ١٩٤٩م ، ص ٢٦ – ص ٢٨.

و انظر هذه المقالة الممتازة لعمانويل سيفان :

Sivan," Refugies Syro- Palestinienes au Temps des Croisades," R.E.I.T.XXXv,Annee 1967,pp.135-147.

المسلمين النازحين من المدن المنكوبة بالغزو الصليبي إلي المدن الكثر أمناً مثل دمشق ،و حلب ؛ أدركنا الأمر علي نحو أكثر جلاءً .

كما لا نغفل أن الذاكرة الجماعية كانت تقوم بدورها الفعال المؤثر في إبقاء القضية حية لا تموت ، فقد روي الأجداد ، للأبناء، و الأخيرين للأحفاد ، تاريخاً شفوياً للصراع مع الغزاة ، وبالتالي تعمقت كراهية الأعداء ، و تنامي الشعور الجارف بالرغبة في الجهاد ثأراً للشهداء الذين مضوا ، وصاروا رموزاً [1] لأمتهم و يحث العقل الجماعي المسلم عن من يسترد الحقوق المهدرة !

وقد يتوهم البعض من الماركسيين الواهمين علي خطوط التجارة العالمية المارة ببلاد الشام ،و الجزيرة في المقام الأول ، غير أن ذلك يحوي قولبة و اعتسافاً في الأحكام وتصور أبناء أمة الإسلام و كأنهم كائنات بلا هوية دينية ، ويلهثون وراء الإشباعات المادية لا أكثر ، والواقع أن الجهاد مثل " الهوية الدينية "التي انصهرت فيه كافة الأقوام ، و الأعراق ، وبالتالي كان أمراً حتمياً أن يتم مواجهة الغزو الصليبي الأتم في ظل أيديولوجية جهادية واحدة .

من جهة أخري في ذلك العصر تأليف مؤلفات متعددة عن الجهاد [2] ،و أهميته لإشعار المعاصرين بضرورة القيام به و من أمثلتها ، ما ألفه الفقيه الدمشقي السلمي

= محمد مطيع الحافظ ، المدرسة العمرية ، بدمشق و فضائل مؤسسها أبي عمر بن احمد المقدسي الصالحي ،ط. دمشق ٢٠٠٠م ، ص ٢٦-ص ٤٠.

١- عن مكانة الشهيد في الإسلام أنظر بصفة عامة :

حسن خالد ، الشهيد في الإسلام – ط. بيروت ١٩٨٥م ،ص ١٩- ص ١٣١، عبد الحليم محمود ، الجهاد في الإسلام ، ط. القاهرة ١٩٨٨م ، ص ١١٥- س ١١٨ ، عمر أحمد عمر ، الجهاد في سبيل الله ،ط. دمشق ، ١٩٩٩م ، ص ١٥.

٢- عن تلك المؤلفات أنظر : ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، تحقيق صلاح الدين المنجد ،م (١) ، ط. دمشق ١٩٥١م ، ص ٣٠ ، ابن شداد ، النوادر السلطانية و المحاسن اليوسفية ،ط. القاهرة ١٣١٧هـ ، ص ١٧ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ،ط. القاهرة ١٩٤٨م ،جـ٣ ، ص ٨٥. أحمد احمد بدوي ، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية في مصر و الشام ،ط. القاهرة بـت ، ص٥٣٧ ، الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية في مصر والشام ،ط. القاهرة ب- ت ص١٣٠ ، عواد الأعظمي ،" تراث العرب الفكري و العلمي في فلسطين في ظل الحكم الإسلامي ، " المؤرخ العربي ، العدد (٢) عام ١٩٧٥، ص ١٦٣.

(ت ١١٠٦م) في رسالته عن الجهاد [١] ، وهي من أوائل ما ألفه العلماء و الفقهاء المسلمون في ذلك المجال حيث أدرك الصلة الوثيقة بين مراحل العداء الأوروبي للإسلام من الأندلس إلي صقلية و جنوبي إيطاليا وصولاً إلي بلاد الشام ، كما أن نور الدين محمود نفسه ، ألف كتاباً عن الجهاد [٢] في هذا الرد هو الأمثل علي من تشكك في أمر دوره في جهاد الصليبيين ، كما أن بهاء الدين بن شداد هو الآخر ألف كتاباً في نفس الأمر بطلب شخصي من صلاح الدين [٣] ، وفي نفس الحين ظهرت مؤلفات تتناول فضائل بيت المقدس و تستنهض الأمم من أجل تحريرها ، ومن أمثلتها ما ألفه الحافظ ابن عساكر (ت ١١٧٦م) في صورة رسالة في فضائل بيت المقدس [٤] و غيرها من الإسهامات التأليفية .

١- نشرت الرسالة المذكورة بتحقيق سيفان في الجريدة الأسبوية عدد ١٩٦٦م ، J,A., 1966 ص ٢١٤- ص٢٢٢.

أنظر أيضا جان فلوري ، الحرب المقدسة ، الجهاد ، الحرب المقدسة العنف و الدين في المسيحية و الإسلام ، ت . غسان مايسو ،مراجعة جلال شحادة ،ط. بيروت ٢٠٠٤م ، ص ٣٠١- ص ٣٠٥ ، هو مؤلف متعصب ضد الإسلام و أهله علي محمد الصلابي ،دولة السلاجقة و بروز مشروع إسلامي لمقاومة التغلغل الباطني و الغزو الصليبي ، ط. بيروت ٢٠٠٦م ، ص ٥٩٣- ص ٥٩٦ ، سهيل زكار ، أربعة كتب في الجهاد من عصر الحروب الصليبية ،ط. دمشق ٢٠٠٧م .

٢- سبط ابن الجوزي ،مرآة الزمان ،جـ١ / ق١ ، ص ٣١٣ ، ابن قاضي شهبه ، الكواكب الدرية ، ص ٥٧.

٣-غن ذلك أنظر : ابن شداد ، المصدر السابق ، ص ١٧ ، ابن خلكان ، المصدر السابق ،جـ٣،ص ٣٨ ، صلاح البحيري ، عالمية الحضارة الإسلامية و مظاهرها في الفنون حوليات كلية الآداب –جامعة الكويت حولية (٧) الرسالة (١٢) عام ١٩٨٢م ، ص ٨٦ ، نظير حسان سعداوي ، المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين ،ط. القاهرة ١٩٦٢م ،ص ١٦.

٤- من أمثلة تلك المؤلفات هناك ما ألفه الحافظ ابن عساكر (ت ١١٧٦م) في صورة رسالة عن فضائل بيت المقدس ، وهي مخطوطة في الجامعة العبرية بالقدس المحتلة عنها انظر : الواسطي المقدسي ، فضائل البيت المقدس ، تحقيق إسحق حسون ،معهد الدراسات الآسيوية و الإفريقية بالجامعة العبرية بالقدس ،ط. القدس ١٩٧٩م ، ص ١٢٠ ، ويلاحظ أن تلك الظاهرة التأليفية استمرت فيما بعد عصر صلاح الدين الأيوبي مما عكس تأصلها ، من ذلك أن القاسم بن عساكر (ت١٣٠٣م) و هو ابن الحفاظ بن عساكر ألف كتاباً بعنوان فضائل القدس الشريف عن ذلك أنظر السبكي ، طبقات الشافعية الكبرى ،ط. القاهرة ب-ت ، جـ٥ ، ص ١٤٨ ، كارول بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ،ط. القاهرة ١٩٧٧م ،جـ٦ ، ص ٧٤.

والواقع أن نور الدين محمود أدرك ضرورة إعداد الأمة للجهاد من قبل عصر صلاح الدين الأيوبي ، وتدعم ذلك من خلال الجانب الديني الذي ظهر في شخصيته [١] .

أما بالنسبة لصلاح الدين الأيوبي ؛ فقد أدرك هو الآخر ضرورة إعداد الأمة للجهاد ، وذلك من خلال إقامة المدارس ، ويلاحظ أنه عمل علي أقامتها في مصر حتى قبل إسقاط الدولة الفاطمية عام ١١٧١م ، ومن أمثلة ذلك المدرسة الناصرية التي شيدت عام ١١٧٠م[٢] . وكان عندئذ وزيراً للعاضد ، ثم عمل علي إقامة غيرها مثل المدرسة القمحية عام ١١٧٠م [٣] ، أيضاً و الصلاحية و السيوفية عام ١١٧٦م [٤] .

كما أن صلاح الدين الأيوبي سعي إلي إقامة المدارس ، و الخوانق ، والزوايا في بلاد الشام من قبل تحرير القدس ، وحتى بعد ذلك ، ولدينا إشارات في المصادر تدل علي ذلك العصر يمكن أن يوصف بأنه عصر المدارس ، ويكفي مطالعة ما ألفه النعيمي

١- عن الجانب الديني في شخصيته انظر : الوهراني ، منامات الوهراني ومقاماته ، تحقيق محمد نغش و إبراهيم شعلان ،ط. القاهرة ١٩٦٧م ،ص ٢٠ ، ابن الأثير ، الباهر ،ص ١٦٤ ، الهروي ،الإشارات إلي معرفة الزيارات ، تحقيق جاكلين سورديل ،ط. دمشق ١٩٥٣م ، ص ١٠ ، الديار بكري ، الخميس في أحوال أنفس نفيس ،ط .القاهرة ١٢٨٣هـ ، جـ٢ ، ص ٣٦٥ ، حسن حبشي ، نور الدين و الصليبيون ،ط. القاهرة ١٩٤٨م ، ص ١٠٠ ، كلود كاهن ، تاريخ العرب و الشعوب الإسلامية ، ت . بدر الين قاسم ،ط. بيروت ١٩٧٣م ، ص٣٦٢ ، محمد مؤنس عوض ، في الصراع الإسلامي الصليبي السياسة الخارجية للدولة النورية ، ص ١٣٨ ، ووصف بالزاهد في أحد مساجد مدينة الرقة أنظر :.Repertoire ,T.IX,p.47

٢- ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ،جـ٥ ، ص ٢٨٥ ، عفاف صبرة ، بهاء الدين قراقوش الوزير المفتري عليه ،ص ١٤٥.

٣- ابن تغري بردي ، المصدر السابق ،جـ٥ ، ص ٢٨٥ ، المقريزي ، الخطط ، ص ١٩٣ ، اتعاظ الحنفا ، جـ٣ ، ص ٣١٩ ، عبد الغني عبد العاطي ، التعليم في مصر زمن الأيوبيين و المماليك ،ط. القاهرة ،ط. القاهرة ١٩٨٤م ، ص ٦٨.

٤- أحمد احمد بدوي ، الحياة العقلية ، ص ٤٢ – ٤٥ ، عبدالغني عبد العاطي ، المرجع السابق ، ص ٧٢.

(ت ١٥٥٠م) في صورة كتابه المدارس [١] ، لندرك أن السلطان ،و كبار رجال الدولة ،و حتى النساء - خاصة خاتونات البيت الأيوبي [٢] - سعوا إلي إقامتها و من المؤكد خطورة دورها لأنها أدت إلي الإحياء السني ، و تكوين جيل جديد مجاهد يدرك أهمية الجهاد ، ويوقن بضرورته و بالتالي فالأمر خاص بما يوصف " بالتربية الجهادية " و في تقديري أن السعي لإعداد الأمة من خلال غرس فكرة الجهاد كان أخطر ما تم خلال المرحلة من ١١٧١ إلي ١١٨٦م فهي الخمسة عشر عاماً " التأهيلية " التي أدت في النهاية إلي النصر المبين .

و في نفس المجال ، تم تعميق صور بيت المقدس في أذهان المعاصرين الذين ألتفوا حول أمل وثاب يتمثل في استرداد المدينة الرمز الخالدة من أيدي الصليبيين انتقاما

١- النعيمي ، الدارس في تاريخ المدارس ، تحقيق جعفر الحسني ،ط. دمشق ١٩٤٨م ، أيضاً : احمد شلبي ، تاريخ التربية الإسلامية ،ط. القاهرة ١٩٧٧م ، ص ١٢١ ، عفاف صبره ، " المدارس في العصر الأيوبي " ، ضمن ندوة تاريخ المدارس في مصر الإسلامية ، سلسلة تاريخ المصريين ، إعداد عبد العظيم رمضان. القاهرة١٩٩٣م ، ص ١٣٩ ، ص ٢٠٠، حسن شيباني ،مدارس دمشق في العصر الأيوبي ،ط. بيروت ١٩٨٣م ، ص ٨٣-ص١٠٣.

ومن المدارس في دمشق :

المدرسة العصرونية ، المدرسة الصلاحية ، المدرسة الاقبالية، المدرسة التقوية ، المدرسة الخاتونية الجوانية ، المدرسة المقدمية الجوانية ، المدرسة الفرخشاهية ، المدرسة الأسدية ، المدرسة القادرية ، المدرسة العمرية ، أنظر : حسن شمسياني ، المرجع السابق ، ص٨٣- ص ١٠٣ و عن المدارس في الحضارة الإسلامية بصفة عامة أنظر :

عارف عبد الغني ، نظم التعليم عند المسلمين ،ط. دمشق ١٩٩٣م ، ص ٨٥ – ص ١٤١ ، محمد منير سعد الدين ، دراسات في تاريخ التربية عند المسلمين ،ط. بيروت ١٩٩٥م،ص ٤٨- ص٦٩ ، مريزن عسيري ، الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي ،ط. مكة المكرمة ١٩٨٧م ، ص ١٣- ص ٢٤ ، سعد إسماعيل علي ، معاهد التربية الإسلامية ،ط. القاهرة ١٩٨٦م ، ص ٣٠٣ –ص ٣٨٦ ، عبد الجليل عبد المهدي ، المؤسسات التعليمية في بلاد الشام في العصرين الأيوبي و المملوكي ،ضمن كتاب التربية العربية الإسلامية المؤسسات و الممارسات ، المجمع الملكي للحضارة الإسلامية ،جـ٢ ،مؤسسة آل البيت ، عمان ١٩٨٩م ،ص ٥٢٥ ، محمد عبد الرحيم غنيم ، تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى، معهد مولاي الحسن ،ط. تطوان ١٩٥٣م ، ص ٦٦- ١١٦.

٢- سيتم تناول دورهم في الفصل السادس .

و ثأراً مما حدث عام ١٠٩٩م ، ويلاحظ أن المعاصرين أدركوا عن عين يقين أن بيت المقدس كانت مسري الرسول عليه الصلاة و السلام [١] ، كما أنها اعتبرت أولي القبلتين [٢] ، وعد المسجد الأقصى ثالث المساجد التي يشد إليها الرحال ، مما عكس أهميته البارزة لدي مسلمي ذلك العصر و من أتي من بعدهم .

و أتصور أن نجاح صلاح الدين الأيوبي ، من خلال الدعاة و العلماء في تعميق الشعور الديني تجاه بيت المقدس كان عاملاً مهماً للغاية من أجل بعث فكرة الجهاد الإسلامي لتحريرها ، وصار هناك الهدف الجماعي الذي وحد الأمة ، و ذلك دون عبارات شيفونية ممجوجة –بل إن ذلك كان بمثابة إحقاق واقع تاريخي معاش حينذاك ، لا يأتي من القائد بل من المجموع الشعبي الذي أفرزه أصلاً للتاريخ و تعاون الأثنان معاً بصفة عامة ، هدف صلاح الدين من وراء حرب الاستنزاف الأيوبية – الصليبية المعبرة تعبيراً صادقاً عن الجهاد الإسلامي تحقيق عدة أهداف يمكن أن تجمل في الآتي :

أولا: استهلاك ، وتشتيت طاقة الصليبيين الحربية ، وانزال أكبر قدر من الخسائر البشرية بهم ،وعدم أشعارهم بالأمان ، بل بالضغط المستمر عليهم عسكرياً ، وسياسياً ، ونفسياً ، مع ملاحظة أن الجيش الأيوبي ، قد اكتسب خبرات قتالية عريضة بأساليب القتال الصليبية ، و طرق التخطيط ، و الإعداد، و التنفيذ ؛ ناهيك عن اكتسابه الثقة في قدراته القتالية ، و إنزال الهزائم بالأعداء .

١- قال تعالي : سبحان الذي اسري بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلي المسجد الأقصى الذي باركنا حوله " ، سورة الإسراء ، رقم (١٧) ، آية (١) ابن الجوزي ،تاريخ بيت المقدس ، تحقيق محمد زينهم عزب ،ط. القاهرة ١٩٨٩م ، ص ٦١- ص٦٢، السيوطي ، إتحاف الاخصا بفضائل المسجد الأقصى ، تحقيق أحمد رمضان ،ط. القاهرة ١٩٨٢م ،جـ١ ، ص ٩٥ ، ابن الإمام ، تحفة الأنام في فضائل الشام تحقيق عبد العزيز حرفوش ،ط. دمشق ١٩٩٨م ،ص ٢٥٠ ، ابن عبد الرازق الدمشقي ، حدائق الأنعام في فضائل الشام ، تحقيق يوسف بديوي ،ط. دمشق ١٩٩٩م ، ص ٤٦ ، عبد الحميد السائح ، مكانة القدس في الإسلام ،ط. عمان ١٩٦٨م .

٢- الزركشي ، إعلام الساجد بأحكام المساجد ، تحقيق المراغي ،ط. القاهرة ١٩٨٢م ، ص ٢٩٢ الواسطي المقدسي ،فضائل البيت المقدس ، ص ٥٠- ص٥١ . و عن فضائل بيت المقدس أنظر : جميل العسلي ، مخطوطات فضائل بيت المقدس دراسة و ببليوجرافيا ،ط. عمان ١٩٨٤م ، ص ٤١- ص٦١ ، محمود إبراهيم ، فضائل بيت المقدس في مخطوطات عربية قديمة دراسة تحليلية و نصوص مختارة ومحققة ،ط. الكويت ١٩٨٥م ، ص ٢٠٨- ص٢٢٩.

ويقرر أحد المؤرخين أن استراتيجيته حينذاك قامت علي أساس الدخول إلي فلسطين عبر نهر الأردن ، و الوصول إلي نابلسي ،و طبرية ، وصفورية و غيرها حيث يتم قتال الصليبيين ثم الانسحاب سريعاً إلي القواعد الأيوبية ، ويعلق علي الأمر قائلاً ما نصه : " لقد كانت أعمال صلاح الدين العسكرية تمثل حرب استنزاف للعدو ، أجهدت قواتهم ، و أكثرت من خسائرهم " [١] .

و يلاحظ أن تلك المرحلة غلب عليها أسلوب الكر، و الفر، وعدم الحرص علي اكتساب مواقع جديدة تكلف بشراً ،ووقتاً ، ومجهوداً في الحفاظ عليها في القبضة الأيوبية .

ثانيا: القيام بسلب ونهب موارد الصليبيين الاقتصادية ، وبالتالي انزال أكبر خسائر بالاقتصاد الصليبي علي نحو يبعث الاضطراب في المملكة الصليبية و جعل قطاعات من السكان خاصة في المناطق الحدودية المستهدفة يدركون أن القيادة السياسية التي من المفروض أن توفر لهم الحماية عاجزة عن ذلك مع ملاحظة أن الجيش الأيوبي كان يفرض وقت ، و مكان الهجوم ،و بالتالي هو المبادر بالصدام ، ولم يمثل مجرد رد فعل علي ما قام به الصليبيون ، وهكذا شعر الصليبيون في تلك المناطق بالتشكك في جدوي قياداتهم العاجزة .

ثالثا: امتلاك عنصر المبادرة بالهجوم علي الصليبيين ، وبالتالي يتحول المسلمون من جانب رد الفعل العسكري المباشر ، فإذا ما لاحظنا أن تلك الحرب لم تكن في منطقة واحدة بل متنوعة ، ومتعددة المناطق المستهدفة ، وأنها استمرت علي مدى عدة أعوام ؛ أدركنا حقيقة مهمة ، وهي حطين كانت تتويجاً حقيقياً ، وتتويجاً لنجاح حرب الاستنزاف الأيوبية .

رابعاً استفاد صلاح الدين الأيوبي من تلك الحرب من خلال دراسة نوعية القرار السياسي ، والحربي الصليبي ، وكذلك معرفة أكبر قدر من المعلومات عن الأعداء ، ودراسة الواقع الجغرافي علي الأرض ، وهو ما سيتم التعامل معه خلال المرحلة من ٤ يوليو إلي ٢ أكتوبر ١١٨٧م ، علي نحو أكد لنا تماماً أن تلك الحرب الاستنزافية

١- يوسف غوانمة ، القدس الشريف ، ص ٣٥.

و من امثله معارك حرب الاستنزاف الأيوبية الصليبية أنظر : نزيه شحاده ، " بيروت تحت وطأة المواجهات الصليبية الإسلامية ، ١٠٩٧- ١٢٩١م " ضمن كتاب بحوث في تاريخ العصور الوسطي كتاب تذكاري للأستاذ محمد سعيد عمران ، ص ٤٢٨.

كانت تعميقاً لتعامل الجيش الأيوبي مع المناطق التي سيقوم بتحريرها فيما بعد ، وكذلك التعامل مع مناطق جغرافية مشابهة لها.

ومع ذلك ، ينبغي ألا نتصور أن كافة معاركه مع الصليبيين خلال تلك المرحلة خرج منها منتصراً ؛ إذ أن هناك معركة تل الصافية ١١٧٧م[١] ، و فيها لحقته الهزيمة ، و انسحبت قواته علي نحو مشين عبر صحراء شبه جزيرة سيناء [٢] ، غير أنه تعلم من الدرس ، وأدرك أن الأفضل أن يكون الانطلاق من دمشق لا مصر لمواجهة الصليبيين ، ومن بعد ذلك بعامين حقق نفس الجيش المهزوم انتصاراً في معركة وقعت بالقرب من بانياس عام ١١٧٩م ، وكان من بين القوات الصليبية الملك بلدوين الرابع نفسه [٣] ، كما تم تحقيق انتصار آخر في نفس العام علي ذلك الملك رايموند الثالث بالقرب من تل القاضي عند سهل مرج عيون [٤] ، وفيما بعد استولى علي حصن جسر بنات يعقوب الذي شيده الصليبيون [٥]و بالتالي أمكن تحقيق ثلاثة انتصارات في عام واحد .

١- عن معركة تل الصافية أنظر :

William of Tyre ,vol .II,p.397.

ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٥٣ ،الفتح البنداري ، سنا البرق الشامي ، ص ١٣٠ ، يوسف غوانمه ،دراسات في تاريخ الأردن و فلسطين في العصر الإسلامي ،ط. عمان ١٩٨٣م ، ص ١٨٩ ، محسن محمد حسين ، الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين ،ط. بيروت ١٩٨٦م ، ص ٤١٢.

٢- لدينا وصف مسهب للمعركة المذكورة لدي وليم الصوري أنظر .

William of Tyre ,vol .II,p.397.

٣-ابن واصل ، مفرج الكروب ،جـ٢ ، ص ٧٢- ص ٧٣.

٤- عن معركة مرج عيون أنظر : ابن واصل ، مفرج الكروب،جـ٢ ، ص ٧٥- ٧٧ ، ابن تغريب بردي ، النجوم الزاهرة ،جـ٦، ص ٢٧. تصوره انظر رأيه : ول ديورانت ، الحروب الصليبية ، ضمن موسوعة قصة الحضارة ، ت. محمد بدران ،جـ١٤ /ق٤ ، ص ٣٥ ، وأنظر تدعيم وجهة النظر المخالفة له:محمود الحويري ، مصر في العصور الوسطي ،ص ١٩٩.

٥- ابن واصل ، المصدر السابق ،ص ٧٢ ، ابن شاهنشاه الأيوبي ، مضمار الحقائق و سر الخلائق ، تحقيق حسن حبشي ،ط. القاهرة ١٩٦٨م ، ص ٢٤ –ص ٣١ هاملتون جب ، صلاح الدين الأيوبي ،دراسات في التاريخ الإسلامي ،ت . يوسف أبيش ،ط. بيروت ١٩٧٣م ، ص ١٣١.

ومع ذلك ، هناك حادثة علي جانب كبير من الأهمية قام بها الصليبيون في وسط أحداث حرب الاستنزاف الأيوبية – الصليبية في صورة ما أقدم عليه الفارس الفرنسي رينودي شاتيون Renauald de Chatillon [1] الشهير في المصادر العربية باسم "أرناط " عندما اتجه إلي مهاجمة المدينة ، ونقل رفات النبي عليه الصلاة و السلام إلي الكرك من أجل تحويل طريق الحج لدى المسلمين إلي هناك ، وبالتالي تحقيق مكاسب مالية طائلة ،وذلك عام ١١٨٢م .

و الواقع أن ذلك الفارس الصليبي من المرجح أنه جمع معلومات مهمة من أجل القيام بتلك العملية الحربية التي من الواضح – من خلال نصوص المصادر التاريخية و السياق العام لتطور الأحداث ذاتها – أن الإعداد لها استغرق وقتاً طويلاً لضمان نجاحها ، كما أن عناصر الخونة من البدو قدموا له كل مساعدة ممكنة في مقابل المال

= وهو حصن عرف باسم Jacob ford في المصادر الصليبية ووقع علي الطريق بين طبرية وصفد من ناحية أخرى و تحكم في طريق القوافل التجارية المارة بالمنطقة عنه أنظر : ابن واصل ، المصدر السابق جـ٢،ص٢٠٦ ، الحنبلي ،شفاء القلوب ،ورقة (٢٦) ،مصطفي الحياري ،" حصن بيت الحزان جانب من العلاقات بين المسلمين و الفرنجة الصليبيين " ، مجلة دراسات ،م (١٣) ، العدد (٤) عمان١٩٨٦م ،ص٣٩-ص٦٠

١- من أهم الدراسات المتخصصة عنه و التي أشارت إليه أنظر :

Schlumberger, Renauld de Chatillon,paris 1933.

دراسة قديمة جديدة و لا يمكن الاستغناء عنها علي الرغم من مرور ثلاثة أرباع قرن عليها .

Hamilton,The elephant of Christ : Reynold of Chatillon",S.C.H., vol .15,1978,pp.97-108.

Friednan , Encounter between Enemies, captivity and Ransom in the Latin kingdom of Jerusalem , Leiden 2007,pp.85-86.

محمود رزق محمود ، العلاقة بين أرناط أمير حصن الكرك و صلاح الدين الأيوبي حتى موقعة حطين عام ١١٨٧م ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب – جامعة عين شمس عام ١٩٧٧م.

وقد قرر البعض أن أرناط قام ببناء أسطول من عدد من المراكب [1] ذات الحجم المتوسط عند البحر الميت وفيما بعد تم نقلها عن طريق الجمال إلي خليج العقبة عبر طريق صحراوي بلغ طوله ١٢٥ميلاً [2] ، وهناك تم إعادة تركيبها و تجهيزها بالفرسان الصليبيين و كذلك بالمؤن و الإمدادات و سارت في البحر الأحمر [3] ، وهو نطاق جغرافي لم يعهد فيه وجود عناصر صليبية من قبل .

ومن الواضح أن القيادة الأيوبية لم تكن تتوقع أن يكون ذلك البحر مجالاً لصراع مع الصليبيين لذا ركزت الاهتمام علي البحر المتوسط الذي كان الساحة الرئيسية للصراع

١-- حملة أرناط علي الحجاز أنظر : العماد الأصفهاني ، البرق الشامي ، تحقيق فالح صالح حسين ، عمان ١٩٨٧م ،جـ٥، ص ٦٩ –ص ٧٠ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ،جـ٢ ، ص ١٢٧ – ص ١٣١ أبو شامة ، الروضتين ،جـ٢ ، ص ٣٧ ، ابن منكلي ، الحكام الملوكية و الضوابط النموسية في فن القتال في البحر ، تحقيق عبد العزيز عبد الدايم ، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب –جامعة القاهرة عام ١٩٧٤م ،ص٨٥- ص ٨٦.

Ernoul,Chronique d, Ernoul et Bernard le Tresorier ,ed .Mas Laterie, paris 1971,p.69-70.

و هي إشارة موجزة للغاية

Atiya, Crusade Commerce and Culture ,London 1962,p.77.

Hamiltion,The Leper king and his heirs, Baldwin IV and The Crusader kingdom of Jerusalem, Cambridge 2000,pp.178-179.

عائشة بنت عبد الله ، الحجاز في العصر الأيوبي ،ط. مكة المكرمة ١٩٨٠م ، ص ٤١- ص٤٤ ، جميل حرب محود ، الحجاز و اليمن في العصر الأيوبي ،ط. جدة ١٩٨٥م ، ص٦٨-ص٧٥ ،حسن عبد الوهاب ،مصرو امن البحر الأحمر في عصر الحروب الصليبية ، ضمن كتاب ، مقالات و بحوث في التاريخ الاجتماعي للحروب الصليبية ،ط. الإسكندرية ١٩٩٧م ، ص ٢٠٣- ص ٢٠٤ ،حسنين ربيع ، " البحر الأحمر في العصر الأيوبي " ندوة البحر الأحمر في التاريخ و السياسة الدولية ،ط. القاهرة ١٩٨٠م ، ص ٤١- ص ٤٤ ، عبد الرحمن زكي ومحمود عيسي ، الحروب بين الشرق والغرب في العصور الوسطي ،ط. القاهرة ١٩٤٧م ، ص ٣٢ ، برهان العابد ، " أرناط الفارس اللص " ، مجلة تاريخ العرب و العالم ، العدد (١٩) ، (٢٠) سبتمبر أكتوبر ١٩٨٨م ، ص ١٢ –ص٢٣،حسين شعيب ، صلاح الدين الأيوبي قاهر الصليبيين ،ط. بيروت ٢٠٠٥م ، ص ٣٥.

٢-يوشع براور ، عالم الصليبيين ، ص ٥٩.

٣-مصطفي الحياري ، صلاح الدين ، ص ٢٥٣-ص٢٥٤.

علي مدى ما زاد علي الثمانين عاماً .

اتجه الصليبيون علي رأسهم قائدهم المندفع المغامر إلي جزيرة فرعون ؛ نظراً لأهميتها الاستراتيجية حيث تحكمت في مدخل خليج العقبة ، وتمت محاصرة القلعة الموجودة هناك من أجل منع وصول أية مياه أو تموينات إليها [١] .

وفي تصوري أن مبادرته بمهاجمة جزيرة فرعون يؤكد علي التخطيط المتآمر الجيد لتلك العملية الحربية البحرية ، كما تم إرسال قوات لمهاجمة عيذاب الميناء المصري الواقع إلي جنوب شرقيها علي البحر الحمر وعد ميناء الحج الرئيسي للحجاز ، و لا تعليل للاتجاه صوب عيذاب [٢] إلا من خلال الرغبة في إرباك الأيوبيين ، والقيام بالسلب و النهب و حتى يكون هناك تصور ما بأن الهدف الأصلي للصليبيين هو ذلك الميناء علي الرغم من أن الهدف كان أكبر وأخطر من ذلك .

من جهة أخري ، كان اتجاه الصليبيين إلي الساحل الشرقي للبحر الأحمر خاصة عند رابغ و حوراء [٣] ، والأمر المؤكد ؛ أن الغزاة كانوا في صراع مرير مع الزمن من أجل إنجاز عمليتهم الغادرة في أسرع وقت ممكن ، وبنجاح ،ويقال أنهم كانوا علي بعد مسيرة يسيرة من المدينة المنورة .

و يزعم المؤرخ الإسرائيلي يوشع براور Joshua Prawer أنه مرت عدة أسابيع إلي أن تنبه المصريون إلي مثل تلك الأحداث و بالتالي ردوا عليها [٤] ، ومع ذلك فإن نصوص المصادر التاريخية لا تعطي ذلك الانطباع البته ، ومن المتصور ، و المنطقي أن مثل تلك الأحداث التي وقعت في موسم الحج مع وجود أعداد كبيرة من الحجاج علي ضفتي البحر الأحمر و موانئه المستخدمة حينذاك ،كل ذلك جعل الأخبار تصل علي نحو سريع نظراً لخطورة الموقف ، ناهيك عن وجود الحمام الزاجل

١- نفسه ، ص ٢٥٤، احمد عبد الرازق ، مصر الإسلامية ،ط. القاهرة ١٩٨٤م ، ص ٢٢٧.

٢- يصور أحمد عبد الجواد الدومي الأمر علي أن القوات الصليبية وصلت إلي عدن و حاصرتها ، وهو أمر لا نجدهما يزيده من أي مصدر تاريخي معاصر ، أنظر : احمد عبد الجواد الدومي ، صلاح الدين الأيوبي الناصر لدين الله ،ط. بيروت ٢٠٠٤م ، ص ٦٧.

٣- مصطفي الحياري، صلاح الدين ، ص ٢٥٤.

٤- عالم الصليبيين ، ص ٥٩.

يقول ما نصه : " ومضت أسابيع قبل أن ترد مصر المباغتة " أنظر ، نفس الصفحة .

لإيصال الرسائل [١] وتوافر شبكة بريد ممتازة في ذلك العصر .

ومن المتصور أنه في حالة مرور عدة أسابيع دون أن يتنبه المسلمون لذلك الأمر الجلل ، لتم تنفيذ العملية بنجاح ، وهو ما لم يحدث بعون الله تعالي و حفظه .

و هكذا ؛ جاء الرد الأيوبي سريعاً دونما إبطاء فقد جهز العادل أبو بكر نائب صلاح الدين الأيوبي في مصر المراكب التي تم نقلها إلي خليج السويس ، وكان الأسطول الأيوبي [٢] قد تم تكوينه و تدعيمه قبل ذلك بأعوام ؛ مما عكس بعد نظر السلطان المذكور . و قد تم تعيين حسام الدين لؤلؤ قائداً له [٣] ، وهو رجل أشادت به المصادر التاريخية العربية ، و انقسمت القوات الأيوبية إلي قسمين الأول اتجه إلي جزيرة فرعون ، والقسم الثاني اتجه إلي عيذاب [٤] ، و منها إلي الحجاز ، وتم مهاجمة القوات الصليبية ولاذ أرناط بالفرار كاللص ،وهناك من يقرر أن الأسرى من الأخيرين بلغوا

= و يوشع براور هو أستاذ تاريخ العصور الوسطي سابقاً بالجامعة العبرية بالقدس ، وهو أبرز مؤرخ إسرائيلي في مجال الحروب الصليبية ، وله عشرات المقالات و الكتب في ذلك التخصص و تعد كتاباته علي جانب كبير من الأهمية خاصة في قضايا الاستيطان الصليبي ، وقد عمل مستشاراً للحكومة الإسرائيلية ، وقد توفي في ٣٠ إبريل عام ١٩٩٠م، وكان يسكن في ١٣ ش صلاح الدين الأيوبي بالقدس الشرقية ، عنه و عن مؤلفاته أنظر :

محمد مؤنس عوض ، فصول ببليوغرافية في تاريخ الحروب الصليبية ،ط. القاهرة ١٩٦٦م ، ص ٢٦٣-ص٢٨٠ ، قاسم عبده قاسم ، رؤية إسرائيلية للحروب الصليبية ، مركز بحوث الشرق الوسط ،جامعة عين شمس ،ط. القاهرة ١٩٨٣م ، القراءة الصهيونية للتاريخ ، الحروب الصليبية نموذجاً ،ط. القاهرة ٢٠٠٥م .

١- عن ذلك انظر : ابن الأثير ، الباهر ، ص ١٥٩ ، ابن قاضي شهبة ، الكواكب الدرية ، ص ٣٨ ، الحويري ،الأوضاع الحضارية ، ص ١٦٣.

Edgington," The Doves of war , the part played by carrier pigeons in the Crusades" in Balard (M.) Autour de la premiere Croisade Actes du Colloque de la Society for the study of the Crusades and the latin East (Clermont – Ferrant 22- 25 Juin 1955) paris 1996,pp.`167- 175.

٢- عنه أنظر : احمد نشاطي العقباوي ، البحرية الإسلامية في مصر و الشام في العصر الأيوبي ، رسالة ماجستير غير منشورة ،كلية الآداب – جامعة الإسكندرية عام ١٩٧٩م.

عبد الجبار السامرائي ،" بحرية صلاح لادين الأيوبي في البحر المتوسط إبان الحروب الصليبية " ،آفاق جامعية ، عدد (٤) عام ١٩٧٩م ،ص ١٨-ص٢٣.

٣- عنه انظر: الفصل السادس .

٤- مصطفي الحياري ، صلاح الدين ، ص ٢٥٤.

١٧٠ رجلاً [١] وصدر الأمر بقتلهم جميعاً [٢] .

و الواقع أن ذلك الرأي جانبه الصواب ،إذ أننا نعلم جيداً أن أخذ عدد من الأسارى كي يوزعوا علي البلاد لكي يقتلوا [٣] ، ثم انه تم التشهير بأعداد منهم ، ولدينا شاهد عيان معاصر في صورة الرحالة ، و الأديب المبدع ابن جبير حيث وصف ذلك التشهير عندما زار مدينة الإسكندرية [٤]، و ذلك في ثنايا رحلته ، مما ينفي فكرة قتل جميع من شارك فيها من الأعداء .

و الآن نتساءل ما هي دوافع ذلك الفارس الفرنسي من وراء تلك العملية البحرية ؟ تجدر الإشارة إلي أن هناك عدة دوافع مجتمعه حركته ، ولا نغفل هنا أننا من خلال " خبرتنا " في التعامل مع تاريخ الصليبيين في بلاد الشام ؛ ندرك جيداً أنهم لا يتحركون من خلال دافع واحد بل عدة دوافع في وقت واحد من خلال تخطيط و سرعة تنفيذ بل ومباغتة لتحقيق أكبر عدد من الأهداف ، ويمكن إجمالها في الآتي :

أولاً : الثأر الشخصي ، حيث أنه أراد أن ينتقم من المسلمين بعد أن مكث في السجن علي مدى ١٦ عاماً من ١١٦٠ إلي ١١٧٦م ، ومن المفترض أن تلك الفكرة راودته منذ زمن بعيد ،وجاء الآن وقت تنفيذها ، غير أنه توهم بقاء المنطقة كما كانت عندما وقع في الأسر دون إدراك أن تغيرات سياسية، و عسكرية متعددة حدثت في أثناء وجوده في غياهب السجن ، غير أنه لم يعمل لذلك حساباً بفضل اندفاعه ، و تهوره .

ثانياً :لا نغفل رغبته القوية في تحقيق شهرة مدوية في صفوف الصليبيين في بلاد الشام

١- أبو شامة ، الروضتين ،جـ٢ ، ص ٣٧ ، أحمد مختار العبادي ، ، " البحرية المصرية زمن الأيوبيين و المماليك" ضمن كتاب تاريخ البحرية المصرية ،ط. الإسكندرية ١٩٧٢م ، ص ٥٦٨-حاشية (٤) .

محمد مؤنس عوض ، تاريخ الحروب الصليبية التنظيمات الدينية الحربية في مملكة بيت المقدس اللاتينية القرنين ١٢، ١٣م ،ط. رام الله ٢٠٠٤م ، ص ١٣٨.

٢- مصطفي الحياري ، صلاح الدين ، ص ٢٥٤.

٣- الرحلة ، ص ٣٤.

٤- الرحلة ، نفس ص ٣٤ ،محسن محمد حسين ، الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين ، ص ٣٦٠ .

بصفة عامة عن الحملة أنظر :

Leiser ,The Crusades Raid in the Red sea 578L1182-3. J.A.R.C.E,14,1977,pp.87-99.

،وفي الغرب الأوروبي ؛ إذ أن مثل تلك العملية- في حالة نجاحها – سوف تجعله في أعلي مكانة – هكذا توهم - و بصورة تتفوق علي وضعيته السياسية من قبل القيام بها

ثالثاً :لا نغفل رغبته في السيطرة علي عدن [1] عند مدخل البحر الأحمر ، وضرب حركة تجارة التوابل المزدهرة عبره .

والأمر المرجح أن الصليبيين وجهوا اهتمامهم إلي ذلك البحر نظراً لكونه المدخل الاستراتيجي للتعامل مع جنوبي و شرقي آسيا و هي مناطق حيوية علي الصعيد التجاري .

و إذا كانت تلك العملية الغادرة مثل تلك الدوافع المتعددة ، فإنها تركت عدة نتائج متعددة و مؤثرة علي تطور الأحداث التالية ،وهي كالآتي :

أولا: ارتفع شأن صلاح الدين الأيوبي وتألق نجمه بصورة أكبر من ذي قبل فها هو الفارس الصليبي الأرعن يقدم له فرصة ذهبية كي يظهر بمظهر حامي الحرمين الشريفين ، ويجعل العالم الإسلامي بأكمله يلتف حول قضية الجهاد بعد أن تعرضت الأماكن المقدسة الإسلامية للتهديد الفعلي الصليبي [2] بصورة غير مسبوقة .

ثانياً : من المرجح أن ذلك السلطان يعد بعد تلك الحداث العاصفة أدرك ضرورة الاهتمام بالأسطول الأيوبي الذي أنقذ المسلمين من كارثة محققة ، ولا نزاع في أن الصراع مع الصليبيين لم يكن برياً بل بحرياً أيضاً .

ثالثاً : دخل البحر الأحمر لأول مرة بمثل ذلك الحجم في دائرة الحجم في دائرة الصراع الصليبي – الإسلامي ودل ذلك علي أن الحركة الصليبية كالأخطبوط بأذرع متعددة ،

١- ورد ذلك في رسالة أرسلها صلاح الدين الأيوبي إلي الخليفة العباسي الناصر لدين الله ، انظر : ابن واصل ،مفرج الكروب ،جـ٢،ص ١٢٩ – ص١٣١ ، أيضا : يوشع براور ، عالم الصليبيين ، ص ٥٩.

٢- تجدر الإشارة إلي أن القوي الصليبية في الغرب طوال العصور الوسطي و حتى مطلع العصر الحديث كان يراودها الأمل في الهجوم علي الأماكن المقدسة الإسلامية في البحار حتى أن البرتغاليين سعوا إلي ذلك الأمر ، إلا أن يقظة الدولة العثمانية حالت دون ذلك و جعلت البحر الحمر بحيرة إسلامية مغلقة و من المهم الرجوع إلي هذه الدراسة المهمة الرائدة :

عبد العزيز الشناوي ، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ،ط. القاهرة ١٩٨٠م.

فإذا كان البابا أوربان الثاني في ٢٧ نوفمبر ١٠٩٥م[١] ، و دعا إلي تحرير بيت المقدس ، ولم يشر إلي أي موضع آخر ، أما الآن فقد اتضح للقاصي و الداني إلي أن المعلن من الأهداف الصليبية غير المستتر و أن تلك الحركة المتعصبة تهاجم كل مكان يمكن أن تصل إليه دون أية اعتبارات فها هي حتى الأماكن المقدسة الإسلامية لم تسلم من التآمر و العدوان! مما عكس أن المعلن من أهداف ذلك المشروع الاستعماري شيء و التنفيذ الفعلي شيء آخر !.

رابعاً : من الممكن الافتراض – دون إمكانية التأكيد نظراً لصمت المصادر التاريخية – أن صلاح الدين الأيوبي بعد تلك الحادثة أدرك - أكثر من ذي قبل – خطورة ذلك الفارس الصليبي علي نحو جعله في بؤرة اهتماماته .

وقد أقسم أنه في حالة الظفر به سوف يقتله بيده ، وهو أمر نفذه فعلياً في يوم ٤ يوليو ١١٨٧م ،أي يوم معركة حطين الحاسمة .

من جهة أخري – لم يكن غريباً أنه بعد تلك الحادثة بنحو أربعة أعوام فقط كان اجتياح مناطق مملكة الصليبيين ، وذلك كله كان يعني الرد الأيوبي العسكري الشامل لم يتأخر طويلاً مع عدم إغفال كافة الظروف و الملابسات الأخرى التي جعلت السلطان الأيوبي يستغرق تلك الأعوام الأربعة في تكوين قوته العسكرية استعداداً ليوم فاصل .

ومن المهم هنا الإقرار ، بأن السلطان الأيوبي لم يكن مندفعاً مثل ذلك الفارس الفرنسي بل لم يورط نفسه في حرب شاملة كرد علي تلك الحادثة النادرة و الوحيدة علي مدى قرنين كاملين من تاريخ المواجهة الصليبية – الإسلامية .

خامساً :هناك نتيجة نتجت ن تلك المحاولة الفاشلة – التي يتجه البعض إلي وصفها بأنها جريئة [٢] ، وأود وصفها بالرعونة ، والاندفاع – وهي تتمثل في تأكيدها علي أن القرار

١- أنظر ما تم إيراده من قبل .

٢- يوسف غوانمه ، إمارة الكرك الأيوبية ، ص ١٣٥ . هذا وصف تأثر فيه المؤرخ المذكور بآراء المستشرقين الأوروبيين مثل شلوبرجيه Schlumberger ، وجب Gibb و غيرهما.

و يلاحظ ان برنارد هاملتون في عرضه لتلك الأحداث حاول القول أن ذلك دل علي قوة المملكة الصليبية في عهد بلدوين الرابع ، مخالفاً بذلك الاتجاه العام لمؤرخي الصليبيات الذين درسوا تلك المرحلة انظر :

Hamilton ,The leper king and his hiers, Baldwin IV and the Crusader kingdom of Jerusalem Cambridge 2000.

السياسي ، والعسكري في المملكة الصليبية خرج من أيدي السياسيين الخبراء المحنكين ، وصار في أيدي جيل مندفع متهور سيجلب الخراب علي الكيان الصليبي الغاصب الدخيل لأنه لا يدرك عواقب ما يفعل .

و لا يفهم من العبارات السابقة أن أرناط قام بتلك الحملة من عنده دون التنسيق مع المملكة الصليبية ذاتها ؛ إذ أن عملية عسكرية بحرية و برية بمثل تلك الصورة ، من المستبعد تماماً أن تتم دون التنسيق بين حكام بيت المقدس و صاحب الكرك .

ذلك عرض عن حركة الوحدة و حرب الاستنزاف الأيوبية – الصليبية .

obeikandl.com